روايات الهلال

يوسف أبوريه



# ليلة عرس

العدد ٦٤٧ - نوفمبر ٢٠٠٢ - رمضان ١٤٢٣ هـ

# روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
**مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير
**مصطفى نبيل**

سكرتيرا التحرير
**محمود قاسم**
**مؤمن حسين**

●

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الامارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٥ فرنكات.

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

# ليلة عُرس

بقلم
يوسف أبو ريه

●
دار الهلال

الغلاف إهداء من

الفنان : عدلى رزق الله

«أنت أكمه ، وأنا أصم أبكم ؛ إذا
فلنتماس الأيدى ، ولنتفاهم»

جبران خليل جبران
(رمل وزبد)

«بما أنى أصبحت جاهزا للأعراس
مثل أوزة على طبق
فلتبدأ الحفلة الآن
ليرقص القتلة واللواطيون
مع الملوك والقديسين
ولتبارك العاهرات هذا العرس بدلا من الكهنة
ليكون لهذه الليلة نسل جميل
لتبدأ الحفلة
فأنا جاهز تماما
كالصناديق»

وديع سعادة
(مختارات)

# الإعداد للعُرس

# - ١ -

إنه أمين الأعمى يعتلى مئذنة جامع السوق ..

تهبط تسابيحه من سماء الحى ، تجول بين النوافذ المغلقة وفتحات الدور ، تهتز لها القلوب فى وجل .

«سبحان من تسمى قبل أن يتسمى»

«سبحان من كان عرشه على الماء»

«سبحان من علم آدم الأسماء»

يتقلب زكى لبعض الوقت فى فرشته ، وحين يسمع الأذان ينهض ليرفع شريط المصباح قليلا حتى تبدو أشباح الغرفة ، كتل متناثرة هنا وهناك ، حصير مهترىء ، ولحاف قديم له رائحة عطنة ، وقلة ساح الماء حول قعرها ، وحنفية من الزنك ، يتلقف مناعها إناء صغير ، تسقط القطرات فيه طوال الليل ، متجاوبة مع ضربات القلب الغافى .

رش وجهه الأسمر بقليل من الماء ، ثم مال على ذيل الجلباب ليجففه ، وذهب إلى ركن الغرفة المكدس بالظلام ، فدفع كتف حودة ، لم يستجب ، فركله برجله فى مؤخرته ، لم ينفرد بدنه الملموم ، فاضطر ككل صباح أن يملأ كفه بالماء ، وينثره على وجه حودة ، فقام صارخاً : آب .. آب .

رفع زكى يده إلى أذنه ليعلمه أن أمين أذن لصلاة الفجر ، ثم أشار إليه مرة أخرى بكلتا يديه ليخبره أن اليوم سوق ، ولابد وأن يلحقا وقتهما قبل الزحام ليصلا إلى محل المعلم قبل طلوع الشمس .

أجابة حودة بأنه يفهم كل هذا ، وحاول الإنثناء ببدنه واضعا رأسه على يده المطوية ، ولم يدع له زكى الفرصة ، فشده من الذراع المفرودة على

جنبه ، وجره إلى الحنفية غصبا ، وأمال رأسه تحتها ليسقط الماء على شعره الخشن بينما حودة يتملص منه ويصرخ بصوت مكتوم :

أب .. أب .

بعدها اضطر إلى مسح وجهه بكميه ، وانحنى على أدواته فرفعها تحت إبطه ، وجعل البعض مرصوصا على الحزام الجلدى الذى يلتف حول خصره ، سكاكين ، وسواطير ، ومبارد طويلة ، وحبال سميكة ، وآنية كبيرة من الصاج .

نفخ زكى فى الفتحات السفلية للمصباح ، فاضطربت الشعلة ، واختنقت، واعاد النفخ ، فانطلق منها دخان أسود ، حوم داخل الزجاجة المعتمة ، وانطفأت .

الآن هم خارج الغرفة ..

هى مكان معزول ، ومستقل ، أمامها مساحة ضيقة يطل عليها جدار غرفة أخرى لها باب يفتح من الجهة العكسية ، يسكنها طالب المعهد الدينى . هو ابن إحدى القرى النائية ، يدرس علوم القرآن والحديث ، وعلوم البلاغة والنحو العصية تجاوز سن التلمذة منذ عهد بعيد ولكن والده يصر على اكمال الدراسة حتى يحصل على الشهادة الثانوية ليلتحق بجامعة الأزهر فى القاهرة . هكذا كان يحلم ، وهكذا وهبه لله ولقرآنه الكريم حين كان يلمس بكفه على أستار الكعبة فى رحلة الحج الوحيدة . مال برأسه متشبثا بالأستار السوداء المباركة إلى جوار الحجر الأسود ، وترك دموعه تسيل وهو ينهنه بشدة : إذا رزقتنى بالولد سأهبه لكتابك المجيد .

وحين تعثر فى دراسته سعى إلى تزويجه ، فخطب له إحدي بنات قريته ، هى الآن تقيم فى بيت العائلة ، وينزل هو المدينة وحيدا ليتريد على المعهد ، ويجد الوقت الكافى لتحصيل علومه .

كان يقلقل قفل الغرفة حين خرجا عليه فى نفس اللحظة :

- صباح الخير يا مولانا .

- سلام ورحمة الله وبركاته .. رزقكم الله بالرزق الحلال .

وسار أمامهما يظلع فى مشيته ، يسند بكفه على الساق السليمة ، ويجر المشلولة على الأرض ، لم تنم أبدا ، ولم تزد عن ساق طفل صغير .

فى المواجهة باب أم على صاحبة الغرف والدار ذات الدورين . تؤجر الغرف السفلية ، وتسكن هى وبناتها الأربع فى الدور العلوى .

اشار حودة إلى أخيه . إنه يريد التبول فى المرحاض العمومى لدار أم على ، ورد عليه زكى بأنهما سيمران على الجامع ككل صباح ، لكن حيودة اشار بألم إنه لا يستطيع صبرا ، فالماء سيندفق منه غصبا ، فقال له زكى : رح .

ودفعه من ظهره ، وقف ينتظره على الباب الذى يجمع الغرف بدار أم على ، يراقب الشارع النائم ، وحودة دخل الردهة التى يصعد منها السلم إلى الدور العلوى ، دفع باب المرحاض فوجد فكرى النقاش يعتصر جسده فوق حجرين ، ويستند بكلتا يديه على الجدران ، فصاح معتذرا : أب .. آب .

عاد بظهره إلى الوراء لينظر إلى الباب المفتوح ، وهمست نفسه الخرساء، يارب كيف يتحقق ما رأيت فى المنام ؟

هكذا رآها ، قبل أن يوقظه زكى بقليل فى نفس الثوب الأحمر الفضفاض الذى يحيط ياقته زغب خفيف ، يبدأ من وراء القفا ثقيلا وغزيرا وينتهى إلى السرة خفيفا نحيلا ليترك مساحة باهظة لحركة الثديين الوفيرين .

إنها أمامه الآن بهيأة الحلم .

تميل على الدلو والفرشاة ، تسحبهما من تحت السرير الأسود العالى ذى الناموسية الشفافة المنسدلة عليه من أركانه الأربعة .

انتبهت فكيهة إلى العين الواسعة المحدقة فيها بقوة . رأت دموعها شهوة تسيل على الخدين ، فارتعشت أعطافها ..

«ماذا يريد منى هذا الأبله؟» « إنه لا يكف عن التحديق فى سائر بدنى .. وحين أكون فى جلسة بين الجارات لا ينظر لغيرى .. إن لعينيه سكاكين تمزع الجسد ، وتهتك أسراره ، إننى لا أطيق نظرتهما .. نظرات فاضحة، لاحياء فيها، ولا خشى» .

خرجت بأدوات زوجها لتضعها أمام الباب ، وعادت إلى الغرفة تعدله إفطاره ، فلحق بها حودة .

– عاوز إيه ؟

وقلبت كفها البيضاء فى الفضاء

فاشار إلى موضع القلب ، وأسبل جفنيه ، ثم رفع أصابعه مضمومة على شفتيه .

– شف حد غيرى

وسمعت نداء فكرى من المرحاض ، فجزعت ، وانتفض سائر بدنها

– أيوه ..

– جهزت اللقمة ؟

– أيوه ..

ودفعت حودة إلى الخارج ، فكان يتقهقر بظهره دون أن يرفع عينيه عن الفلقتين المنسابتين بين الزغب الوردى الذى ينام على هضبتى الصدر.

عند الباب تشبثت أقدامه بالأرض ، وعزم على الهجوم فرغبات اليد النحيلة أقوى من إرادته ، إنها تريد الإمساك بشئ من نتوءات الجسد الفارع الموزعة بحكمة ، وبهندسة إلهية تثير شهوة الرضيع .

فى لحظة الهجوم المباغت وقعت ثلاثة أحداث :

ميل فكيهة على الفرشاة التى تطل يدها الخشبية من الدلو ، وخروج زوجها بعد قضاء الحاجة مشغولا برفع سرواله وتجفيف يده فى جوانبه المنقطة بألوان قوس قزح ، ونزول الشيخة عايدة من سلم الدور الثانى تسحبها أختها الصغرى نوال .

صبح فكرى على الجميع ، وأشار إلى حودة بدخول المرحاض غير أنه انسحب مخذولا إلى الخارج ، وتقدمته نوال ممسكة بيد أختها العمياء حيث طريق المقابر لتلحقا بالزائرات قبل أن ترتفع الشمس الحارة لتعودا فى الضحى بثروة هائلة من الفطائر والقرص ، وبقليل من المال .

وأخذته أرداف نوال الصغيرة المضغوطة فى جلباب ضيق ، مخنوق عند الخصر ، ينزل بكسرات تتوزع على الكفلين القويين المتماسكين ، فاستيقظت مرة أخرى رغبته العاجزة ، خطا بسرعة ليسير فى الطرقة الطويلة موازيا لهما ، وفى لمحة وكما ينقض مخلب الصقر الجارح على عنق الحمامة ضغط على الترمستين البارزتين للبنت التى تقتحم سنى الأنوثة بعنفوان ، لا يدرى أحد منبعه ، فزعت الطفلة فيها ، وضربت مخلبه الملوث بدم جاف .

- يا وسخ .

وعاتبت الشيخة عايدة أختها .

- ع الصبح كدا !!

- الأخرس خبطني .

- جاك خابط .

وكان زكى قد راعه المشهد ، فأمسك أخاه من ياقة الخلعة التي تجمد نسيجها المدمم .

- تجيب لنا الكلام ع الصبح .

فاشار حودة إلى أصبعه ، وأدار حوله أصبع الكف الأخرى ، يريد أن يقول له : قلت لك أكثر من مرة زوجني .

خرجا إلى الشارع ، فلامست وجهيهما نسمة رطبة ، وهواء نظيف ، دفعهما إلى السعال في نفس واحد ليدفعا هواء الغرفة الفاسد في بلغم لزج، داسا عليه بأقدامهما ، وظلت فكيهة بثوبها الأحمر ذى الزغب الناعم تخايل عيني حودة لبعض الوقت .

فكيهة منذ أتى بها زوجها من قريتها البعيدة ، تشغل بال فتية الحى ، بقوامها الشامخ ، وشعرها الناعم الذى تتركه همجيا على كتفيها ، وبأثوابها التى تبرز الكثير من مفاتنها ، فهى ليست كنساء الحى ، ترتدى الجلابيب ذات السفرة ، وتضع الطرح السوداء على رأسها ، وتخرج بشباشب سوداء ذات جلد سميك .. إنها تميل للألوان الصارخة البهيجة ، وتبدع في تبديل مناديل الرأس التى تنطرح على جوانبه أزهار كبيرة زاهية ، وتخرج بنعال فاقعة الألوان ، لها ورود تشرق على واجهة القدم ، ودائما تلوك لبانة طرية ،

تطرقع تحت أسنانها الصغيرة البيضاء ، وتخرج بطرف لسانها لتحدث فرقعة تهز القلوب الوثابة لأولاد لا يكفون عن التسكع تحت شباكها ، أو الوقوف طويلا تحت أسوار البيت الكبير التي تمتد من شارع الفاخورة حتى تواجه معمل الجبن .

من هذه الأسوار تطل غصون خضراء لأشجار توت سامقة تميل على الحافة ، وترمي ظلها عند الهجيرة أمام دار أم علي .

تقضي فكيهة النهار وحيدة بعد خروج فكرى بدلوه وفرشاته وحلته المزركشة بألوان جيرية ووجه لا تتمحى عنه بقع زيتية راسخة .

ربما خرجت لتقضي مشوارا هنا أو هناك ، أو لتبتاع الخضار من السوق ، وربما جالست النسوة المجتمعات تحت أسوار البيت الكبير .

وحودة حين يراها في غدوه ورواحه لا يتماسك أبدا ، يندفع جسده بلا إرادة منه فيسبقه إليها ، فمرة ترتفع يده الساقطة إلى جنبه لتمسك عضدها اللحيم المزنوق فى كم ضيق ، ومرة يجد نفسه وجها لوجه معها ، فلا يدع لها الطريق ، يقتحم حضنها فى المدخل الضيق لدار أم على .

وغاب عن وعيه يوما عند عودته من محل الجزارة فوجدها تميل إلى الداخل ، وقد تركت رد فيها يصعدان إلى أعلى ، كانت تكنس عيدان الملوخية المتناثرة فى المدخل ، فسقط عليها من أعلى العتبة ، وأمسك بكفلها من الجانبين ، ودفعها إلى الأمام بقوة ، أخذتها المفاجأة حتى كادت تسقط على وجهها ، غير أنها تماسكت ، واندارت إليه لتضرب وجهه بالمكنسة ، وهو لا يريد إفلاتها . كان يدور بها من الخلف ، وهى تريد التمكن منه ، فدفعته نحو الحائط ، حتى نطق الآه صريحة واضحة ، ثم جمع ما بين

فخذيه بكفيه ، وانعطف إلى غرفته ذليلا كئيبا حتى عادت إليه ممسكة المكنسة بيد تمرح على بياضها أساور ذهبية لها بريق .

اشارت إليه وهي غاضبة بحق أنه لو عاد لفعلته هذه ستخبر زوجها ، ورفعت اليد الطليقة إلى شفتيها لتبرم شاربا وهميا ، وأنها ستفضحه أمام سكان الدار ليطرد من مأواه ، واشارت بالمكنسة نحو الخارج كأنما تكنس كومة من القاذورات ، ثم تفضحه في الحي كله ، ورفعت كلتا يديها لتصنع دائرة كبيرة ، وركلت الهواء بساقها ، اشارة بأن الجميع سوف ينبذه .

ظل منصتا إليها ، معلقا المفتاح فى القفل ، يتأمل جمالها ، ويود لو يلقى بدنه النحيل في أحضانها غير أن الألم الذى تصاعد من أسفل أطفأ الرغبة، واشار بأصبعه إلى عينيه مطيعا ثم ضم أصابعه النحيلة الجافة إلى شفتيه ، وألقى قبلة فى الهواء ، جعلتها تبتسم ، وتنسى غضبتها العارمة ، دخل غرفته المظلمة الكئيبة راضيا بالبسمة أسيفا لعدم الاكتمال الذى أهدر طاقته.

انعطفا سويا جهة اليمين ليتجها إلى الطريق العمومى المسفلت ، حيث ينتظرا معا العربة الكارو عند بوابة المحطة ، تجاوزا دار أم على ، وتفاديا الندى الساقط من توت البيت الكبير ، ودنا من دار (أبو سنة) الذى خرج من عتمتها رافعا سحاحير السمك الزفرة .

- صباح الخير .

- صباح الجمال .

اراح السحارة على الأرض بعد مجاهدة مع ثقلها ، ووقف يجفف عرق جبهته ، وابتسم لحودة ، ونطر يده فى الفضاء علامة التحية ، فرد عليه حودة السلام بإهمال ، وردد همهمة كظيمة تشى بعدم الرضا عن الرجل .

- مالك ؟

فأجابه زكى

- زى كل يوم .

- كان على عينى .. البنت لسه صغيرة .

وفهم حودة ماعناه الرجل ، فبصق جهة شجر التوت الذى تميل أغصانه حتى تلامس الرأس ، وأراد أن يشد أخاه فلا يثرثر مع هذا الرجل ، فجذبه زكى نحوه ، واشار إليه أنه يسمع صريخا ، واتضح الصوت ، فقد خرجت بنت (أبو سنة) مندفعة من الداخل وألقت بنفسها فى حضن أبيها .

كانت أمها تلاحقها ممسكة المكنسة بيد ، ورافعة سروالها المبلل باليد الأخرى.

وانحنى الأب على البنت يجمعها بين يديه ليحميها من الضرب ، وطاشت الضربات حتى أطاحت بعمامته .

- يا وليه .. حرام عليك .

- دى عروسة .

وأحس زكي بالحرج ، فجر أخاه ليصعدا إلى طريقهما ثم نزع حودة يده وراح يضرب الكف بالكف ، وينظر إلى السماء التى بدأت تلمع بإشراقة يوم جديد «آب .. آب..» .

دفعة زكى فى جنبه معاتبا ، واشار إليه ليفهمه هذه من كنت تبغاها عروسا ، أصبر على رزقك ، وستجد الفتاة المناسبة لك ، وأمن جودة على كلامه بأن وضع أصبعين على جانبى رأسه .

صدفة غريبة أن تخرج بنت (أبو سنة) فى هذه اللحظة وأن تميل أمها إلى فضحها ، كل يوم عند خروجهما تقع عيناهما على نفس

المشـــهد، الأب يعد سحاحيره للذهاب بها إلى الطريق العمومى ليقف هناك مع باقى السـمـاكين بانتظار عـربة المطـرية التى تـأتيـهـم من أقـصـى الشـمـال مـحملة بأنواع السمك ، البلطى ، البـيـاض ، البـورى ، وقليل من الثعابين .

وتقع عـيناهمـا على البنت وهى خـارجة من عمق الدار ، ترفع المشنات والميزان لتصحب أباها حيث مكان البيع ، إما فى سوق البلد ، أو فى رحلاته إلى الأسواق الأخرى فى القرى والمدن المجاورة ، تتقدمها أمها فى طولها السامق وأطرافها الممتدة ، تلملم غطاء رأسها الأسود ، وتنظر خلفها من وقت لآخر تناديها .

- همى يا نادية .

وحـودة من خلفـهما يهم نحوهما ويسرع الخطو حتى لا يفلت مشهد الردفين المندفعين إلى الوراء يصعدان ويهبطان مع مشيـة البنت المرهقة بالحمل الثقيل .

أتريد الأم بأن تقطع عرقا ، وتسيل دما ، وتنهى إلحاحه فى طلب البنت ؟ هاهى كما ترى صغيرة إلى الحد الذى يجعلها لا تتحكم فى بولها .

فليكن ..

واشار إليه زكى ليقول له : افرش لها مشـمعا كما تفرش الأمهات لأطفالهن.

رد عليه حودة بالاشارة إن صغر سنها لا يمنعه من الارتباط بها ، وأنها ستنمو معه وبالتالى يستطيع السيطرة عليها وتشكيلها على مزاجه .

ورفع كفيه إلى صدره ليصنع علامة الثديين ، ثم قبل أصابعه الملمومة على شفتيه ، بقصد الإعلان عن جمال البنت ، فأسكته أخوه لِيَرد تحية المرأة

التى ترفع مترد اللبن على رأسها ساعية إلى المعمل . هى أول من تحضر من نساء الحى ، امرأة نشطة ، تحلب بهيمتها مبكرة ، وتسرع باللبن دافئا تحصل على ثمنه وتعود إلى دارها لتعد الإفطار للزوج قبل أن يسرح إلى حقله ، تتبعها نسوة أخريات يخرجن من الشوارع الفرعية حاملات المتارد على رؤوسهن ويقل خروجهن كلما صعد الشارع إلى أعلى حتى ينتهى عند المعصرة ومنازل الحجر التى تضم دكاكين البقالة ، والمقاهى ، والمطاعم ، ومحلات صناعة الحصر ، فيضج الشارع الكبير بحركة السيارات المارقة ، قادمة من الجنوب ، ومن الشمال ، تلتقى عند مدخل البلد فى طريق يضيق عند البوابة الحديدية ، حيث ينحصر الشارع فى صف وحيد من الدكاكين ، وأبواب البيوت ، يواجه سور السكة الحديد المبنى بالدبش الأبيض ، يمتد من أول البلد إلى آخرها .

هنا مكان الزحام .. وهنا ملتقى الطرق جميعا .

محطة القطار ، محطة الاتوبيس ، موقف السيارات ، عربات الطعام ، والبليلة ، فرش الفكهانية ، موزع الجرائد ، وأكثر المقاهى كثافة ، ووكالة الحمير حيث يدع أهل القرى التابعة للبلد مطاياهم إلى حين عودتهم من السفر إلى المدن الأخرى .

اقترب زكى وحودة من مقهى متولى ، ووقفا لبعض الوقت حول النار المرتفعة من المنقد الواسع ، مدا أيديهما إلى لسان اللهب ليدفئا أطرافها الباردة ، وبدت عزيزة الخنفا فى ضوءها الخفيف الساقط على النصبة ، كانت تشعل النار تحت الرمالة ، وحين استدارت إلى طقم المعسل لتعيد ترتيبه لمحت الأخوين ، فرفعت يدها محيية ، وغمزت لزكى بطرف عينها

السليمة ، فابتسم ، وتبرم حودة ، وأدار ظهره نحوها ، وجاء صوتها الخشن من داخل المقهى .

– صاحبك لسه واخد على خاطره ؟

– اسأليه .

وشد حودة من كم جلبابه لينظر إليها غير أنه نتش الذراع بعنف ، وترك مساحة الضوء التى تشيعها النار. ووقف فى مواجهة البوابة الحديدية بانتظار العربة الكارو .

تحركت أمعاؤه في جوفه ، وشعر بالغثيان ، ولولا أن المعدة خاوية لكان قد دفق محتوياتها على الأسفلت ، فأمسك بطنه بعد أن ألقى عن كتفيه حمولته من الأوانى والسكاكين .

وسرح عقله فى هذه المرأة اللعوب ، عزيزة الخنفا مبولة الطريق العمومى، أتى بها متولى حين هبطت البلد لحضور المولد ، وجدها (سفروته) تجيد عمل المقاهى ، وكانت سريحة على باب الكريم تنتقل من مولد إلى مولد ، ومن بلد إلى بلد ، تخدم فى الغرز ، وتنام مع من يرغبها ، والرغبة إليها بحاجة لشجاعة خاصة ، لن يقربها إلا محتاج . فهى امرأة عوراء ، سوداء ، صدئة الجلد ، لها رائحة الماء الذى تنزحه من بئر المقهى ، خليط من المعسل العطن الممزوج بتفل الشاى ، وبقايا البن ، وحصى الحلبة ، تتسرب مع الخلطة رائحة دخان راكد لقوالح مطفأة ، ومدفونة ..

ظل حودة يمتنع عن الاقتراب منها ، رغم مناوشاتها المتكررة ، فهو حين ينهى عمله فى دكان المعلم ، يخصل مع أخيه على فص من كبدة الذبيحة ، يقفا به على عربة خشبية صغيرة أمام مقهى متولى مع دخول

الليل حتى انقطاع الرجل عن الشوارع أو حتى تنتهى كمية الكبدة المقلية بالزيت .

يقف حودة أمام الصينية الواسعة ، يقلب قطع الكبدة ثم يخرجها بمصفاة إلى إناء مفروش بالبقدونس ، وزكى يفتح الأرغفة ، ويدس فيها الكمية المطلوبة بعد وضعها على الميزان ، ويفاجأ حودة عند استغراقه فى عمله باليد تندفع إلى آلته ، فيصرخ ، وحين يلتفت يجد عزيزة تكركع بضحكة ذكورية غليظة وهى ترفع الأكواب والصوانى والجوز من أمام الزبائن .

ويهلل الرجال لحركاتها ويطلبوا منها العودة إليه ، فتمهلهم حتى تتحين منه الغفلة .

ينسى حودة فعلتها ويقف أمام الصينية الواسعة يقلب الكبدة ، وينادى الزبون بأن يرفع كفه إلى صدغه صائحا : بيك .. بيك .

تعود عزيزة خلسة وتنتش طرف آلته الراكدة ، فيجرى وراءها بالمصفاة ، ويقتحم مجلس الرجال ، ويدخل المقهى ، ويحجز بينهما متولى خابطا بيده على صدره : علشان خاطرى .

ويميل على رأسه فيبوسه .

ذات مرة كررت فعلتها ، لحق بها ، وزنقها بين حائط النصبة ونار الرمالة المشتعلة ، وأمسك بكلتا ذراعيها ، واقتحم صدرها يريد أن يدفعه برأسه ففوجىء بانتصابه يسبقه إلى موضع العفة فيها فترتخى ذراعا المرأة إلى أسفل وتلتقى العينان فتغمز له ، ويسقط فكه فى بلاهة ، تشير إليه بأنها ستزعم لزوجها ضرورة العودة إلى البيت لحاجة عرضت ، على أن يلحق بها.

عاد حودة إلى أخيه سارحا فى الملكوت ، عاجزا عن السيطرة على جسده ، وترك المصفاة على الزيت المغلى وأشار إليه بأنه سيذهب إلى مرحاض الجامع القريب لأنه (مزنوق) ، وسيعود فى غمضة عين ، وأشار إلى عينيه ، وسمح له أخوه .

لحق بعزيزة ، ودخل بابها المفتوح ، جاءت هى من الداخل بعد أن خلعت جلباب العمل الأسود ، وأطلقت شعرها بعدما فكت عنه منديلها الأزلى ، واربت الباب ، وسحبته من يده إلى سريرها المفروش بملاءة ذات مربعات باهتة .

قعدت على حافة السرير ، ورفعت ثوبها إلى أعلى ، وأشارت إليه ، فتقدم مترددا ، وزادت هى من رفع الثوب ، وأدهشه أنها عارية من أسفل تماما ، حدق النظر إلى ما بين فخذيها ، وتقدم نحوها ، فأمسكت ذراعيه وشدتهما ليركع أمامها ، ونزل على على ركبتيه ، رفعت يديها إلى صدغيه لتدس وجهه فى خلقتها ، وحين دنا ولمست أطراف أنفه الشعيرات الخشنة ، انقلبت معدته ، وصعدت إلى حلقومه ، ودون إرادة منه اندفع وجهه إلى بطنها ، فطرحته أرضا ، وركلته بقدميها ، واندفع هو نحو الباب يمسح جوانب فمه بكمه عائدا إلى عربة الكبدة ، وهو ينتفض .

لحظ أخوه تغير سحنته ولكنه لم يسأله عن السبب أبداً ، ورنا بطرف عينه ليرى عودة عزيزة إلى عملها فى المقهى ، واتسعت بسمته ، واهتزت أعطافه ، وهو يردد مقطع الأغنية مع مذياع المقهى .

أشار حودة إلى أخيه لينضم إليه حيث رأى عربة الكارو قادمة من الجهة الأخرى للبلد . تصعد بجهد نحو المزلقان ، والعربجى يلسع الحمار بسوطه

ليندفع نحو الأرض المرصوفة بحجارة سوداء صغيرة على جانبى شريط القطار .

تقدم الأخوان نحو العربة ، ركب كل واحد منهما على جنب ، بعد أن وضعا أدواتهما فى الطشوت الفارغة مع باقى أدوات الزملاء المتحلقين على الأطراف ، وبدأت العربة رحلة الهبوط إلى الشارع المنخفض ، وصاح العربجى فى النسوة اللائى قدمن بالقفف والمقاطف التى تفيض بخضروات الأرض .

- يمينك يا ولية ... ضهرك يا ست .

وانتشرت رائحة الشبت والبقدونس والكرتب والجوافة بينما عجلات العربة تطقطق يمينا وشمالا ، وتتهادى فى هبوطها الحذر نحو تجار الفخار الذين وزعوا بضاعتهم على جانبى الطريق ولم تنطلق العربة بحرية حتى خرجت من البلد لتستقبل الحقول السابحة فى الضباب الخفيف .

هنا يحس الحمار بالعتق ، ويقطع الطريق المسفلت ، ويعبر الكبارى المشيدة بالحجارة والحديد . مشوار طويل مرهق ليصل إلى السلخانة ، ولكن بهجة الخضرة فى الحقول والهواء المنعش الطازج ، يفرد الرئتين على اتساعهما ليعبا منه ، ما شاءت لهما الطاقة والجهد .

وبعد الترعة (الجنابية) ستنحرف العربة قليلا إلى اليسار لينضم رجال المعلم إلى باقى الجزارين ، منهم السريحة الذين يحظون بنصف الذبيحة التى تعلق على (سيبية) خشبية فى الأسواق ، أو على قارعة الطريق ، ومنهم (الكرشاتية) المتخصصون فى بيع (العفشة) المكونة من لحمة الرأس ، والكوارع ، والفشة ، والكرشة ، والمنبار ، يحملونها فى طشوت كبيرة إلى

عرباتهم ليقفوا بها فى المكان المخصص للجزارين فى سوق البلد ، أو يسرحوا بها فى الأسواق الأخرى ، أو يفرشوا بها على النواصى .

ثم صبية المعلمين الكبار الذين يرفعون على ظهورهم ذبيحة كاملة أو أكثر من ذبيحة وفقا للموسم أو للأيام المحددة لبيع اللحم .

توقفت العربة على جنب ، ونزل عنها زكى وحودة وباقى الرجال ، واقتحموا الزحام ، دخلوا باب السلخانة مارين على الرؤوس المقطوعة والذبائح المسلوخة والكوارع المرصوصة فى حبال ، وتفادوا نهر الدم المنساب فى المجرى ، وتابعوا الذبائح المعلقة فى الخطاطيف حتى وصلوا إلى زميلهم الذى يقوم بالذبح ، وجدوه قد انتهى من عمله ، وأشار إلى نصيب المعلم ليرفعوه عن الخطاطيف ، دخل الرجل منهم بكتفه أسفل الذبيحة المقسومة نصفين ، رفعها قليلا إلى أعلى فانفكت عن خطافها ، ومال الجزء المعلق نحو رأسه ، فتلقفه رجل آخر ، وسارا به سويا نحو العربة المنتظرة بالخارج .

## - ٢ -

قام المعلم عثمان إلى الحوض يغسل يديه وفمه ، وهى إلى جواره ممسكة بالفوطة ، تضبط له ياقة جلباب النوم ، رأى وجهها فى المرآة ينساب على بياضه الناصع شعرها الأسود الموزع بالعدل على الجهتين . حين استدار إليها أمسك الوجه بكلتا يديه ليطل بكامل بهائه ويقطف قبلة سريعة من شفتيها ، فضربته على كتفه بحنو .

- حتتأخر ع المحل .

تركت الفوطة على ذراعه ، وسارت فى الطرقة العريضة حيث تنقل أطباق فطور إلى المطبخ .

تأمل شفافية الروب الأبيض الناعم تبرز الظلال الداكنة للستيان والكيلوت .. حورية من الجنة !! ستجننى هذه المرأة وتطير عقلى . كم من السنوات عبرت حتى حظيت بها ؟؟

عمر مديد .. ولكنها لم تزل تشع نفس النور الملائكى الهادىء .. كنت أظننى سأخدش رقتها ، ولكنها معطاءة .. تمنح فى الفراش بلا جهد ..».

حين تقدم إليها مرة أخرى ، قالت له :

- ارجوك ما تتكلمش فى الموضوع مع حد .. أخاف الفضيحة .

- فضيحة !!

- كفاية كلام الناس عن جوازنا .

- شرعى ، وعلى سنة الله ورسوله .

- طبعا ، ولكن الموضوع التانى ماحدش حيرحم .

- أنا مش هعمل حاجة .

- أمال حتتصرف ازاى ؟

- أنا بس حجرسه .

- حرام عليك .

كاد يعود إليها ليأخذها فى حضنه ، لكن وقت العمل أزف ، ولا يستطيع تأجيل السوق ، دخل غرفة النوم ليبدل ملابسه ، وقف أمام التسريحة يتأمل شعر رأسه والشارب . هناك شعيرات بيضاء تناثرت على الجانبين ، ولم تخفها الصبغة . أمر طبيعى . ولكن بعد الحصول عليها ينبغى أن يتوقف الزمن لتعويض ما فات . حب خياته ، وفتاته الأولى ، منعه الفقر من الصعود إليها ، حين كان صبيا يساعد أباه ، عند وقوفه بالسيبية على رصيف شارع الزراعية ، يحصل على (السقط) المذبوح خارج السلخانة ، يكون الفلاح قد استغاث به لينقذ بهيمته ، ولما يهرع إليه يجدها فى النزع الأخير ،

- نلحقها بالسكينة ؟

- بكام ؟

ويحاول صاحب البهيمة ليصل إلى أعلى سعر .

- يا آبا تحمد ربنا نشيلها فطيس ، ورزقى ورزق أولادى على الله .

- توكل على الله .

ويحملها هو وولده عثمان إلى الدار حيث يقوما بسلخها وتقطيعها ، وإرسال الرأس والسيقان والعفشة لكراشاتي يسرح بها ، ويقتعدا الرصيف فى صباح اليوم التالى .

وكانت هى تطل من نافذة بيتها ، تشرق مع شمس الصباح بذراعين بضين يخرجان من ثوب صيفى خفيف ، لا أكمام له ، يحدق فى النافذة حتى ينسى نفسه ، أو حتى يفيق على صوت أبيه يزجره .

- خليك معايا شوية يا عثمان .

ظلت تنمو أمامه ، وهو يرقب أنوثتها فى مريلة المدرسة مرة ، وفى الچيب والبلوزة مرة ، وفى الجلباب الأسود الجريرى ، تلف رأسها طرحة چورچيت تبدى نصوع الوجه ، أكثر مما تحجب ، إلى أن خطفها الأفندى الذى يستحقها «بنت الأفندى للأفندى» هكذا رددوا فى وجهه . هو مجرد جزار على باب الكريم ، يضع على رأسه طاقية مبرومة ، ويربط وسطه حزام ، يلتف على جلباب أبيض غرقان فى الدم ، ويضع قدميه فى (بلغة) أسود جلدها من كثرة ما تراكم عليها من الدم والتراب .

راحت البنت إلى بيت المهندس المقام بأطراف البلد ، ڤيلا عريقة بدورين ، تنهض وسط حديقة يموج فى صباحاتها عطر ، لا نفاد له ، وتحيطها أسوار عالية ، تتوزع بين جنباتها أشجار العبل السامق التى تخفى الشجر المثمر بالجوافة والمانجو والليمون .

« هل أحست به يوماً ؟» لا يستطيع الجزم ، كان يلاحقها فى طريق المدرسة ، وعلى رصيف القطار الذى يأخذها إلى عاصمة الأقليم ، حين انتقلت إلى المعهد العالى .

ترد على الحاجه بكلمات قليلة ، وهى تنظر إلى الأرض فى خفر محبب إلى القلب .

- خلاص أرجع بقى الناس تقول إيه ؟

ويرجع بحسرته تاركاً أميرته إلى شئونها ، ولكن القلب المشتعل بناره الأزلية لا يهمد « لابد وأن تكون زوجتى يوما ما مهما حصل ..» .

وها هى وراءه تضع الشال القطنى على عنقه ، وتمد طرفيه على صدر جلبابه الفخيم ، تداعب قفاه بيدها الرخصة ، وتديره نحوها لتطبع القبلة على شاربه .

- علشان خاطرى .. ما تديش للموضوع أكبر من حجمه .

- إزاى !!

- ولد أهوج ، اعتبره دابة خرسا .

- لا .. هو أذكى بنى آدم فى البلد .. دا أنا مربيه .

- قلمين على صدغه بينك وبينه ، وخلاص .

- سيبينى اتصرف .

واندفع إلى الخارج ، وهو يسعل لينفض بقايا تحشيشة البارحة ، رفع ترابيس الباب ، وخبط قدميه فى الدواسة وقبل أن يغادر البسطة ، سألها :

- عايزة حاجة ؟

- سلامتك .

مد يده ليستند على سور السلم ، واهتاجت الرئتان لهواء النهار النقى ، فراحت تنفضه فى سعلات قوية متتالية ، حتى اندفق الدم إلى وجهه الكابى ، فصار كقطعة الكبدة . تفل البلغم عند مدخل العمارة ، وداسه

بحذائه البنى اللامع . طرقت أنفه رائحة السباخ ، ودوى فى أذنيه خوار البقر خلف جدران المعلف المواجه للعمارة ، أطل برأسه من الباب العريض فرأى رجاله يوزعون العلف المخلوط بقش الأرز على المذاود الطويلة الممتدة والبقرات يلكن الطعام بنهم .

«كيف يجرؤ هذا الكلب على مد يده إلى سيدته ؟

جنون . أقصى أنواع الجنون ، بل سافل لا يخضع لنعمته ، يعض اليد التى انقذته من الجوع ، نسى أنى ضممته للعمل مع أخيه وأنا غير مقتنع به ، ماذا يفعل أخرس معنا فى محل جزارة ؟ هو قدير فى رص الجوزة ، لا شك ، عفريت ، يسقيك المائة حجر فى دقيقة ، يقعى أمامك كجرو هزيل ، لا يكف عن الإشارة .

تطلب منى ألا اعاقبه حتى لا تنفضح فعلته !! كيف وأنا أدرى الناس به ، وهل سيكف عن حديث المقاهى ؟ أيام كان يرص لى الحجارة ، اعطيه الإشارة بالحديث ، فيأتى على سيرة فلان ، وعملة علان ، أخبار البلد كلها فى جيبه ، إنه يدرى ماذا يحدث وراء الجدران ، يدرك أسرار الفراش ، وخفايا القلوب . هنا تكمن خطورته ..» .

احكى يا حودة ..

ويبدأ الحكى ..

عن المدرس الذى يغرر بالتلميذة الغضة البدن ، كيف يدنيها منه بحجة تصحيح الكراس ، وهو طامع فى الإمساك بفرخيها الراقدين فى المهد الدفىء ، مازال لبن الطفولة عالقاً بشدقيهما ، وهذا المعلم اللعين يفزعهما ، وينتف زغبهما الأخضر .

ويحكى عن السائق الذى ينتقى الزبونة الجميلة فيجعل جلستها إلى جواره يحرك (الفتيس) وبحسن النية يثبت الكوع على القبو الطرى المنتفخ ، يحرك عجلة القيادة لتستمر الإهتزازة الخفيفة المثيرة على الصدر صعوداً وهبوطاً .

ويحكى عن الطبيب ، يمارس المهنة وهو راغب فى الجسد المستسلم بينما المريضة تئن من ألم ناشع فى العظم ، ينقر بأصبعه على المواقع الحساسة ، ويلمس بخبث بين الفخذين وهو عليم بأن الوجع هناك ، فى الضرس .

«الآن سوف اكون واحداً من هؤلاء» .

«سيحكى عن شمس ويشهر بى لأننى لم اساعده على الزواج حين طلب ذلك منى . سيحاول الإنتقام ، ويعلن على الملأ إنه على علاقة بالست» .

– إن المعلم يرسلنى بالطلب إلى شقتها ، فتكون بانتظارى فى أثوابها الشفافة التى تبدى روائع الجسد ، تقول لى :

– ادخل يا حودة .

فأجد ما طاب من طعام على السفرة الكبيرة الممتدة بعرض الصالة . آكل حتى امتلىء ، ثم تأخذنى إلى حمام معطر ، تدخلنى خلف ستارة البانيو ، بعد أن تكون قد تخلصت من أثوابها القليلة ، ونقف فى عرينا نتلقى ماء الدش ، وتضمنى إليها التهم شفتيها الحمراوين المكتنزتين ، ثم ارفعها بين ذراعى لا دخل بها سرير وثير له فرشة وردية من حرير لامع ، نتقلب عليها براحتنا ، ثم اعاود التهام الطعام «المحمر والمشمر» وتقطع لى ثمارالفاكهة من السلة الموضوعة بين أطباق الطعام كزهرية .

وضربت الشمس الطالعة من وراء البيوت وجه المعلم فصحا من كابوسه غاضباً مزمجراً يحاول فك قبضة يده ، فلا يستطيع ، يميل على سور الجامع

لبعض الوقت ، يرقب صحوة الشارع وتفتح الأبواب والنوافذ وخروج النسوة إلى الشرفات لنشر أغطية النوم والفلاحين الذين يخرجون من تفريعات الشوارع الضيقة يمتطون الحمير ويجرجرون مواشى تخطو بهمة إلى الحقول على وعد بوجبة الفطور على أجواف فارغة .

«هذا ما سيضيفه خياله الأخرس ، وسيصدقه الناس نكاية فى شخصى .. وهو – الكلب – لم يخطو خطوة نحو عتبة الشقة . كان يقف على الدواسة – هكذا قالت لى – ومد يده بكيس الخضار فوضعته خلف الضلفة المغلقة ، ثم مد يده بكيس اللحم – هكذا قالت لى – ركنته خلف الضلفة ، ونفض كفيه الطليقين ليقول لها بالإشارة :

– عايزة حاجة تانية ؟

قالت له : انتظر .

واعطته ظهرها ، وكان فى نيتها أن تمنحه بعض المال ، حين عادت وجدت فكه السفلى قد تدلى إلى عنقه ، ورواله يسيل على صدره دون إرادة منه ، وبدلاً من أن يمد يده للمال ، غرسها فى صدرها ، واستماتت أصابعه على فردة الثدى .

رأيت قبضته عليه حين أخرجته من مكمنه ليلاً ، فعجزت عن المواصلة ، وسألتها : أصابع من هذه ؟؟

فبكت ، قمت عنها وأنا أهز عريها بعنف : من وضع بصمته هاهنا فى مكمن الأسرار ؟

وأدارت ظهرها جهة الحائط توارى وجهها حتى لا ينكشف سرها الخفى ، فجذبتها بعنف :

- ليلة سودا ما لهاش آخر .. تلعبى بديلك يا شمس ؟

- حاشا لله يا معلم .

- إيد مين اللى انطبعت على البز ؟

- الواد حوده . (قالتها هكذا بسرعة ، ودون تدبر مسبق)

- مين ؟!!

- حوده .. الأخرس.

ابن الحرام !! هل هذه آخر ربايتى له ؟؟ مع حرمة بيتى يا أخرس الكلب ! ألا يدرى أنه اقتحم جنتى بوازع من شياطين جهنم الحمراء . كم من العمر والجهد بذلت حتى نلت حبيبة القلب ؟

وهو فى لحظة مجنونة مسعورة يهبش دون رادع ، ودون إدراك للعواقب .

منذ متى وأنا اكد ، وأعمل ؟

لا بداية لى .. ليست هناك خطوة أولى ، كلها خطوات للصعود إلى سلمها العالى .

مات الأب ، وقامت حرب ٦٧ ، انتشرت وحدات الجيش بين بلداننا ، وكنت قد حزت دكاناً صغيراً فى الشارع التجارى ، وجمعتنى صدفة رائعة مع قائد الوحدة الذى هبط إلى البلد مع جنوده . كان له فى الكيف ، والتقينا فى بيت (أبو عاشور) الذى يديره كغرزة سرية لكبار القوم .

كلمة من هنا .. كلمة من هناك ، طلع ولد ابن بلد حقيقى ومجدع ، وصارت صداقة حتى يومنا هذا ، ارسل له الحتة الفليتو أو الموزة ليقع فى غرام لحمتى ، وأنا اسخسخ من نكاته التى لا تحدها حدود ، لا يهمه كبار الحكومة ولا حتى رئيسها .

قال لى ذات سهرة : صرحوا لى بالبحث عن مورد للوحدة ..

– إيه رأيك تساعدنى ؟

قالت له :

– من العين دى قبل العين دى .

كلمت له صاحب وكالة الخضار المجاورة لدكانى ، وتوليت أنا توريد اللحوم ، ودخلت من البوابة السحرية للزمن المواتى ، ست سنوات من النكسة للعبور ، تراكمت لدى أموال لا أول لها ولا آخر ، أقمت بدلاً من العمارتين ثلاثاً ، وانشأت بدلا من المعلف اثنين ، وركبت المرسيدس ، وعرفت النزهات فى أرض الله الواسعة ، وحجزت شقة بالإسكندرية أصحب إليها أم الأولاد والأولاد كل صيف . وعلمت البنات والأولاد جميعاً حتى حصلوا على الشهادات العليا ، والزوجة الأولى بنت حلال ، عاشت معى أيام الفقر ، برضا كامل ، تعاون على قدر الجهد ، لم ادخلها المحل أبداً ، مكنونة كالجوهرة فى بيتها تربى العيال ، وتجيد الطهى .

وظلت نار شمس متأججة فى القلب ، لا خمود لها ، حتى انتفضت البلد يوماً على الحادث المروع الذى قضى على حياة زوجها ، حين صدمته سيارة غريبة على مدخل البلد ، وارتدت الأسود لمدة عام كامل .

كان الأسود يضفى جمالاً على جمالها ، وكان الحزن يمتزج بروحها الرقيقة فيضاعف من شفافيتها .

وتجرأت على التقدم إليها ، لقيت استجابة سهلة ، لم يعترض أحد من أهلها ، وأعددت لها شقة رائعة فى العمارة الجديدة التى كتبتها باسمها .

الصايع يلوث كنزها بيده القذرة !!

حودة صبى القهوة الذى ألحقته بالعمل عندى ، لا لشىء إلا للهو به ، وليبهج نفسى بحركاته ، وتقليده لخلق الله ، أنا اشغله كقرد ، بدلاً من أن يكون للناس كافة استخلصته لنفسى .

كان يسعى إلى المقاهى يبحث عمن يرسله لشراء المعلوم ، أو ينتظر النداء للقيام بإعداد الجوزة والنار والمصفاة ويبدأ الرص ، يفضل الافندية ليحظى بالبقشيش الكبير ، وليدخر لزمنه واسطة لدى الحكومة ، والأفندى يفضله عن غيره لأنه سينال الحظوتين ؛ الضحك ، والتخدير .

إذا كان الرجال من غير الأفندية ، سيقعد كواحد منهم ، ويدخن كواحد منهم ، ويشرب الطلب على حساب أحدهم ، ينادى على صاحب القهوة ، يطلب الشاى (يجعل كفه على هيئة كوب ، ويدير فيه سبابة الكف الأخرى) أو يطلب الحلبة (يفرد كفه على آخرها وينفخ فيها) إذا كان المزاج حابكاً يطلب القهوة مضبوطة (يجعل إبهامه على منتصف السبابة) أو على الريحة (يجعل إبهامه على طرف السبابه) .

يطلبون إليه أن يقلد فلاناً فيرفض حتى يلمحوا إليه ببريزة أو ربع جنيه ، فى حالة الرفض القاطع ، يضرب بيده الهواء ، ويلم شفتيه ويخرج : تك .. تك .. تك متلاحقة حاسمة .

إذا كانت الحشيشة قوية وعاركته فغلبته ، يبدأ يحكى بمزاج ، فهو يعرف الخباصين والمرتشين والعلاقات الحرام . يعرف الجار الذى يزور جارته - زوجة صديقه المسافر - فى وقدة القيلولة ، والجار الذى يزور جارته - زوجة صديقه العليل - فى سوادة الليل ، وملم بالرجال المغرمين بمضاجعة

الصبايـا والصبيان ممن لم يبلغـوا الحلم ، يعرف الرجـال الدون الذين لا يخافون الله ويزنون بالحمارة والكلبة ، ويقدر أن يفرز المرأة التى تتكحل لزوجـها من المرقعـة التى تتكحل لشاب يقطع ساعات الليل والنهار فى الدوران حول دارها .

وقد يلعلع فيتكلم فى السياسة ..

. وإسرائيل هى ديان الأعور (يضع يداً على عين ويد ع الأخرى محملقة) الحكومة هى زبيبة على الجبهة ، وهى اليد على شكل صليب إشارة إلى قيد الحديد .

وحين يشير إلى المخبر المندس (يحرك مقلتيه ذات اليمين وذات الشمال ، ويرسم على وجهه ملامح الخوف الحذر ، ويدفس رأسه بعنقه فى كتفيه) .

إذا كان بين الرجال غريب لا يأمنه ، يقول إنه فى حاله (يفتح يده ويجرى فى بطنها - بالعرض - اليد الأخرى) وأنه يقيم الصلوات الخمس (يجعل صدغيه بين كفيه خمس مرات ويصيح بالتكبير : أبر .. أبر ) .

ويعمل طول النهار من أجل اللقمة الحلال (يجمع أصابع اليد على الفم) .

فى آخر النهار يسامر أصدقاءه على المقهى ، يشرب الشاى ولا يدخن الحشيش إلا تحلية للمعسل ، ثم يقوم إلى حجرته لينام عقب صلاة العشاء (ينيم رأسه على باطن يده) لينهض فى البكور ويلحق بصلاة الفجر جماعة (يرمى رأسه إلى الخلف ويجمع أذنيه فى كفيه ويكبر : آبر .. آبر .)

ويرفع أصبعاً إلى السماء ليذكر الغريب الجاهل بأن هناك عيناً كبيرة هى عين الله ، ترقب أعمالنا ، ويسجلها ملكان مربوطان بأعناقنا موكلان بكتابة السيء منها والحسن .

ويفلت حوده من مطب الحديث فى السياسة مع غريب يريد أن يحفر الحفر فى دروب الدنيا الوعرة .

وينحنى على الغابة ، يشد الأنفاس ، ويتوه رأسه فى سحابة الدخان ، وينفض يده في وجه الغريب ليقول : لا تتكلم في السياسة فتروح وراء الشمس (يمسك تلابيبه ، ويغطس رأسه فى عبه ، ويشير إلى قبة السماء) .

هل سيجعلنى واحداً من هؤلاء ؟؟ قتله حلال .. صحيح .. اتق شر من أحسنت إليه . لن تكون زوجتى مضغة لأهل البلد يا أخرس .. وسأربيك » ..

دخل الآن شارع الزراعية التجارى ، فراح يتلقى التحايا ، ويرمى السلام على التجار الذين فتحوا أبواب محلاتهم ، وبدأ صبيانهم يعيدون ترتيب البضاعة ، خارج الأبواب ، وعلى الأرصفة .

حاذر الزحام الذى بدأت أولى موجاته ، فاتجه إلى يمين الطريق ، حتى لا يصدمه حمل حمارة ترفع أكداس الخضار القادم لتوه من الحقول القريبة من البلد ، أو من القرى المجاورة .

بخور فى كل مكان ، وتراتيل تنطلق من الراديوهات مختلطة بأغان صباحية مشرقة ، وصوت مقرئين يرددون قرآن ما قبل السابعة ، ومقرئين من أهل البلد يمرون على المحلات ليرتلوا الراتب ، بعد عودتهم

من المقابر ، يقبعون على الدكك تمسك أياديهم بالصرر الكبيرة ، ويتطلعون إلى الشوارع خشية أن ترتفع شمس الضحى قبل أن ينهوا راتبهم اليومى .

مال عمود الدخان المنطلق من الداخل ، فغمر وجه المعلم ، نفضه بيده ، وتجدد سعاله ، وقال للولد الذى يرفع المبخرة :

– على خفيف .. على خفيف .

واخرج له البريزة من جيبه ، وضربه بوهن على قفاه :

– توكل .. شف غيرنا .

قعد على الطاولة الخشبية المرتفعة يعالج غلق درجها حتى سمع هتاف الشيخ سعدون الحصرى «حى .. قيوم» فانشرح صدره ، وانفرجت أساريره .

وقال لنفسه فى بهجة حقيقية : الشيخ رجع .

ودخل عليه فاتحاً ذراعيه على آخرهما : الله .. الله .. حبيبى يا نبى .

## - ٣ -

شيخ لكنه لم يحصل على عالمية الأزهر ، ولا يجيد الوقوف على المنابر ، ولم يحفظ سور القرآن كاملة ، كما أنه لا يؤم الناس فى صلاة ، أو يلقى الفتاوى والأحكام .

مجرد درويش يسعى فى مناكبها ، يعشق الموالد ، وطبقات الذكر لا يرتبط بطريقة صوفية بعينها ، ولا يميل لأن يكون فرداً فى جماعة ، حر طليق ، يتنقل من مكان إلى مكان ، ومن جماعة إلى جماعة ، لا يطيق المكوث طويلاً فى أرض واحدة . لا يخشى شيئاً ، ولا يجيد تقدير الأمور ، حين تتلبس الحالة بدنه يغادر المكان دون أن يتلفت وراءه ، لا يهمه ترك العمل ، والزوجة ، والأولاد ، يلبى النداء الغامض ، ويسعى حتى يحط فى المكان المنذور ، يقضى المدة حيث يشاء الله . ومرة أخرى يلبى النداء فيعود فجأة ، دون توقع من أحد .

يعمل مع أخيه الحاج رضوان الحصرى فى محل كبير لصناعة الحصر . لكل طريقته فى الحياة . الحاج رضوان رجل نزيه يرتدى الثياب النظيفة دوماً يميل إلى البياض . العمة ، والجلباب ، والنعل ، حتى المسبحة التى لا تغادر يده . وهذا البياض الذى يحبه يضفى على وجهه الأشقر نصوعاً ، وشعوراً خفياً بالرصانة والثقة مع بسمة لطيفة متعلقة بالوجه لا تنسحب عنه حتى لو وصل الغضب منتهاه .

عـاش مع زوجته الطيبة دون أن ينجبا الولد ، ولا البنت ، فجعل من أولاد أخيه أبناء له ، يحدو عليهم ، ويدنيهم منه ؛ ولطول فترات غياب الأب تعلقوا به وجعلوه أباً حقيقياً ، ينادونه ، «يا آبا» ولا يتنـازلوا عن هذا النـداء فى حضـور الأب الأصلى ، فهم يعلمون أنه سرعان ما يترك الدار والمحل ، بل يهجر البلد جميعـاً ويختفى إلى حيث لا يعلم مكانه إلا الله .

والشيخ سعدون - رغم هذا - بارع فى عمله ، يجيد رص السمار مع الخيوط ليضع الحصير أو المصلى ، يقعى فوق الآله الخشبية ، ويترك أصابعه النشطة تعمل وحدها تمرر السمارة من خيط إلى خيط بخفة ، وباليد الأخرى يشد الخشبة المستعرضة ليدق بها النسيج ، فينضغط الحصير ، ويتماسك ، يقضى يومه هكذا حتى ينهى ما بدأ .

فى أيام أخرى تراه مع صبيان المحل يرفعون الحصر إلى الرحبة الواسعة عند ناصية الشارع ، يفردونها تحت شمس النهار حتى يجف سمارها ، يمدد الشيخ الواحدة تلو الأخرى ، وينحنى بظهره عليها ليضم السمار جيداً إلى الخيط حتى يزداد تماسكاً ، وفى النهاية يربط أطراف الخيط بشدة ، ويكون الحصير مهيأ للزبون .

يعمل بهمة دون أن يكف عن الحديث مع نفسه ، قد تأخذه الجلاله فجأة ، فيهتف بأعلى صوته : حى .. حبيبى يا نبى .

ويلقى العمامة على الحصير ، ويروح يتقلب فى مساحته ذات اليمين وذات اليسار مصدراً وجهه للشمس ، ويضرب الكف بالكف فى جذل لا يدرى أسبابه أحد غيره : الله .. الله .. يا أبا خليل .

فيعلم الناس أن رحلته هذه المرة قريبة ، فلن تتجاوز الزقازيق ليلحق

بمولد (أبو خليل) أشهر أوليائها ، وربما هتف وهو يضرب ساقيه فى الهواء : الله .. الله يا قناوى .

فتكون الرحلة إلى قنا ، أو يهتف باسم الدسوقى فتكون الرحلة إلى أقصى الشمال ، إلى دسوق .

هكذا يستنتج الناس ، وربما اخطأوا ، فالمولد - مهما طال - لن يزيد عن أسبوع أو أسبوعين ، وإذا كان بعيداً قد يحتاج إلى شهر ، ولكن الشيخ يغيب الشهور الطويلة ، ويختفى العام كله ، والعامين ، وفى إحدى رحلاته اختفى ما يقارب الست سنوات .

المعلم عثمان ينتظر قدومه المفاجىء ، فتشيع فى جسده الفرحة ، هكذا سيجد لليله الطويل صحبة ، سيجد ليوم العمل من يسليه ، ثم إن الشيخ لا يدخل عليه فارغاً أبداً يميل إليه هامساً حتى لا يلتقط رجال المعلم كلماته :

- جايب لك .. محبة فى رسول الله - خلطة تخلى المؤمن يغفل عن صلاته .

ويضرب يده فى جيب الجلباب الصعيدى المخطط بالطول ويخرج الخلطة الملفوفة بورق سميك ، يقربها من أنف المعلم :

- شم بالصلاة ع الحبيب .

فتشيع فى رأس المعلم ضجة : تدفع الدم الخامد :

- الله .. الله يا مولانا .

- دى بالصلاة على الغالى تصبحنها بعد صلاة المغرب ، وتخليها لغاية ما تنوى . قبلها بساعة بالضبط ، ما تخدهاش على جوف فاضى .. وتوكل على الله .

- تشرب إيه يا مولانا ؟

– قهوتنا المظبوطة بالصلاة على النبى .

ويشير المعلم إلى صبى انزوى فى ركن يشفى اللحم من العظم .

– قل لهم اتنين مظبوط .

وحين يدخل الولد بالصينية يعض الشيخ كتلة بنية داكنة جعلها بين أصبعيه ، ويرفع منها بعود ثقاب قطعة يذيبها فى قعر الفنجان بعد أن أزال الوش .

– اصلب حيلك يا رجل .. شايفك مش ولابد النهاردة .

– حكاية طويلة شاغلة بالى يا مولانا .

– كله يهون بأمره .

– معرفش اعمل إيه ؟ ولا ابدأ معاك منين ؟

– انكت صدرك يرتاح .

– الواد حوده الأخرس يتهجم على بيتى !!

– يا ساتر ..

– النجس .. والله لا قطع دابره .

وقص عليه الحكاية كما ذكرتها شمس ..

رفع الشيخ يده ، مررها على كتفه « قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق ..» .

« قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .. »

ما كاد ينهى المعوذتين حتى سمع قعقعة العجلات بالخارج ، توقفت العربة الكارو أمام الباب بالضبط وتقدم الرجال ليرفعوا الذبيحة إلى الخطاطيف المدلاة من السقف . كان اللحم ساخناً لم يزل ، يسيل منه الدم ، ويتساقط على البلاط الأبيض المسوح .

دخل حودة زائطاً حين لمح الشيخ ، وانحنى عليه ليأخذه بين ذراعيه ، ويقبل لحيته ، واشار إلى سقف المحل : آب .. آب .

وابتسم له الشيخ بود ، وربت على كتفه يباركه ، ثم جره نحو المعلم ليسلم عليه ، فاستدار حودة نحوه غير أن الرجل لم يمنحه الفرصة ، افتعل إصدار الأوامر ، فعاد حودة بظهره ، لا يدرى سبباً للقتامة التى هبطت فجأة على وجه معلمه ، وإدرك بينه وبين نفسه . أنه سيقضى يوماً عصيباً فى عمله ، هكذا اعتاد غضبة المعلم التى تأتى دون سبب وتزول دون سبب ، ويوم سعادته الحقيقى حين يكون راضيا عنه ، فلا يكف عن مداعبته . ويطلب منه المشوار تلو الآخر ، وهو لا يهمد ، يستجيب بلهفة ، ويقضى ما أمر به المعلم دون تأخير .

أراد الخروج من المحل ، فلحق به الشيخ ، وأمسكه من يده ، واشار إليه أنه يريد الحديث إليه فى أمر هام .

وانتحى به جانباً مختفيين بين جزعين من ذبيحة معلقة على واجهة المحل ، قال له الشيخ إن المعلم قد فاتحه فى موضوع زواجه هذا الصباح .

. تهلل وجه حوده « وأنا بدورى اقنعته بأن الولد يعمل لديك بإخلاص ، وأنه قد بلغ السن الذى يستوجب أن يجمعه وزوجه بيت واحد» .

وأنه قد حصل على موافقة المعلم ، وسيتم زفافك هذا الأسبوع ، وضربه على بطنه مداعباً : ابسط يا عم .. إياك ماتكسفناش . وفهم حودة كل الإشارات ، ولكن الغصة لم تفارق حلقه ، فوجه المعلم لا يشى بالرضا ، ثم كيف أنهى موضوعاً ألح عليه لسنوات فى لحظة واحدة ، الشيخ يصرح له

بحالة باشة ، مفرحة ، والمعلم تجاهله عند دخوله ولم يرد السلام عليه ككل صباح .

أى الخيارين يصدق ؟ هل فى الأمر خدعة ما ؟

وابدى شكوكه للشيخ ، واشار إليه بأصبع متوترة متسائلاً : ولكن سجنه المعلم تغاير ما صرحت به ، رد عليه الشيخ بأن المعلم مهموم بأمر لا علاقة له بك ، ثم اشار إليه مرة أخرى : ومن ستكون العروس ؟ هل يعرفها ؟

وأجابة الشيخ بالإشارة : ألا تثق فى معلمك حين ينتقى لك عروساً فستكون من أحسن الناس .

والسؤال الأخير : هل سيساعدنى فى تكاليف العرس ؟ واشار إليه الشيخ مطمئناً : لن يكلفك مليماً .

ثم دفعه بلطف ليقول له : بطل اسئلة وشف شغلك حتى لا يرجع المعلم فى كلامه .. لابد وأن تثبت له جدارتك فى كونك أحد رجاله الخلصاء .

وعاد الشيخ ليتخذ مجلسه إلى جوار صديقه الذى كان ينصت لفورة الدم التى تصاعدت فى شرايينه . مزيج القهوة مع فص الأفيون ألهب وجهه ، وادفأ أطرافه ، واشاع البهجة فى عروقه ، فخفت غضبه حتى مال بوجهه نحو الشيخ يسأله :

- قلت له إيه ؟

- قلت له حنجوزك .

- إيه !! بدل ما نعاقبه نكافئه !!

- علشان خاطر النبى سيب لى الموضوع .. أنت بس عليك الدفع والفرجة .

- أمرك .

وعاد بظهره مسنداً رأسه على الحائط يتابع رجاله ، منهم من صعد إلى موقعه فوق البنك الرخامى ، ومنهم من راح يرفع الدهن و(الشغت) عن اللحم الأحمر ، ومنهم من يعيد رص فصوص الكبدة فى الثلاجة الزجاجية المضيئة ، كما ظل يتابع قدوم الزبائن مع صعود شمس الصباح ومحاولاتها الدؤوب فى اقتحام الباب لتتمدد بطولها على الأرض المرقشة بقطرات الدم .

## — ٤ —

تكلم المعلم عثمان معك ياحودة وكأنما ضرب على وتر مشدود مشتاق للعزف، ومال المعلم على الشيخ سعدون وأدار ناظريه إلى رجاله الذين يعملون حوله، غامزاً بعينيه:

- وإلا إيه يارجاله ؟

قالوا فى نفس واحد: كله من خيرك.

هجمت على يد المعلم تريد لثمها، فأرخاها الرجل للشفة المحنية، وقال بالصوت العالى : استغفر الله.

طلب بالإشارة «ورينا شطارتك، وأعمل بجد حتى أخلص النية».

واتقدت شعلتك ياحودة حتى كادت أن تحرقك نارها الوهاجة، رحت تخرج وتدخل، تهبط وتصعد، ترفع وتحط، وعينك على المعلم «هل ترانى؟»

قبل أن تغادر المحل سألته عن العروس المنتظرة، فجمع لك المعلم أصابع اليد الواحدة «ستراها ليلة الدخلة» وخبطك على قفاك مداعباً «وتفض بكارتها».

وهززت رأسك بفرح ..

«أم لا تثق فى معلمك ياحودة؟؟»

«معاذ الله» واشرت إلى السماء

ربنا اعلم .

كفاك ما أعلنه معلمك، وقلت لنفسك «فلا تنتظر إلى يوم الخميس» «فات الكثير وما عاد إلا القليل» أشار إليك زكى بأن تأخذ العدة، وتذهب إلى الغرفة لتعد العربة لسهرة الليل، وسيلحق بك حين يحظى بنصيبه من الكبدة المتبقية فى المحل.

رفعت الأدوات فى كيس من الخيش، وجعلت الطشت الصغير تحت إبطك، وصف المُدى حول وسطك.

الشمس الغاربة على أطراف البيوت العالية، صفراء واهنة، وزحام شارع الزراعية تلاشى تقريباً. التجار الذين يهبطون البلد يوم السوق غادروا إلى مدنهم رافعين بضاعتهم على عربات (الداتسون) نصف النقل، وتجار البلد بدأوا يرفعون أشياءهم على عربات الكارو.

وتناثرت أوراق الخضار على الأرض بانتظار جرار البلدية، داستها الأقدام فاختلطت بطين الشارع، وانتشر الماعز فى كل مكان يسعى فى مرعى من بقايا الخضر، يسير فى قطيع مقتحماً الأرصفة والدكاكين المفتوحة، يهشه أحدهم فيجرى فى رعونة حتى يطيح بما يلقاه فى طريقه.

صعدت الطوار المرتفع حتى لا تضطر لاقتحام القطيع فضربت أنفك رائحة الفسيخ المملح، التفت إلى يسارك لتحى دسوقى الفسخانى، فاشار إليك دسوقى بتهليلة غير معتادة، ورفع يده إلى عمامته ليقول لك: «مبروك» واشرت إليه : «كيف عرفت؟».

أجابك دسوقى بإشارة تؤكد بأن الشارع كله يعلم، ثم رفع كفيه

المضمومتين إلى صدره وقبلهما بشفتيه ليقول لك: «إنها جميلة جداً» فدهشت، ونطرت يدك فى الهواء «هل نشر المعلم الخبر؟» «أم أن صبيانه أذاعوه فعرف البائع والتاجر والزبون؟ إن المعلم رجل طيب، فرح من أجلى وأراد دعوة الناس كافة، والغريب أن الجميع يعرف العروس، الكل قد اتفق على نفس الإشارة».

وهبطت الطوار لتسير نحو الجهة الأخرى من الشارع فتلتقى بصاحب الطابونة، فأشار إليك بإشارة الفسخانى، ومررت على الفكهانى فكرر نفس الإشارة، فاضطررت للتجاوب معهم، وأبديت سعادتك للجميع «أنا لست صبى جزار غلبان لا يهتم بى أحد، على العكس، الجميع فرح من أجلى، وكأننى الأعزب الوحيد فى هذا البلد».

«هل أكمل الشارع فأمر على شواية السمك، وتاجر أوانى الالمونيوم، والفخرانى، وبائع الجرائد؟ أم اختصر الطريق فاصعد سلم المحطة واسير على الرصيف وحيداً؟ فلا كتفِ بهذا القدر من البهجة، واتفادى الناس حتى يأتى وقت الدعوة للعرس».

وبدأت ترقي سلم المحطة، ثم استويت على الرصيف المبلط فتلقفك المعاون جالساً على الكرسى فى ظلة البناء الانجليزى العريق.

– مبروك ياحودة.

ورفع يده عالياً ليهزها فوق شعره النائم على جنب، وتقدم إليك ليشد على يديك، وأشار إلى كلتا عينيه ليعلن لك أنه سعيد جداً، وأعقبها بإشارة رفع الكفين إلى الصدر ثم تقبيلهما بالشفة.

شكرته، ودخلت فى حلقة المسافرين الواقفين تحت المظلة الخشبية

بانتظار قطار الخامسة والنصف.

قطعت الرصيف باتجاه البوابة الحديدية، ولمحت القطار القادم من الجنوب يثير الغبار فى مدخل البلد، لكنك أبداً لم تسمع صفيره، ولم تطرق أذنك دقات الجرس الذى ينبه بانغلاق البوابة، إنك تقدر المسافات بما ترى عيناك، لا بما تسمع أذناك، نظرت إلى الخلف لتتأكد من قدوم القطار المقابل فرأيته يدخل بطيئاً عند التحويلة، يتلوى جسده الثعبانى مستجيباً للقضبان الحديدية، فقدرت أنك تستطيع العبور إلى الجهة الأخرى، انحنيت تحت البوابة النائمة واتخذت طريقك باتجاه مقهى متولي. كانت عزيزة الخنفا تسعى بين الكراسى ترش الماء على الأرضية لتسكن الغبار الذى تثيره حركة السيارات المسرعة، اشرت إليها بأنك ستترك أدواتك هنا، حتى تعود إليها بعد أن تغتسل. وأشارت إليك «لماذا تغتسل من الآن؟ أنتظر إلى يوم عرسك فقد صار قريباً جداً». فابتسمت لها، وسألتها «كيف عرفت الخبر؟».

دلقت بقايا الماء على الأرض، وقالت «الكل يعرف؟» ورفعت كفيها إلى صدرها، ومنعتها من إكمال الإشارة وقلت لها «إن الجميع يقولون إنها جميلة جداً وأنا لم أرها بعد».

وشلحت ثوبها إلى أعلى وضمته حول ردفيها، ومشت أمامه متقصعة «ولكنها ليست أجمل منى».

بصقت خارج المقهى، ثم دستها عند خروجك إلى الشارع الكبير المزدحم بالسيارات.

بعد قليل انحدرت إلى الشارع الفرعى الطويل، صارت الشمس وراءك، فرمت ظلاً مضاعفاً أمامك. كان يسبقك، يرتفع وينخفض، يتسلق أحجار الطريق، ويسيل مع بقع الماء المدلوق أمامك، يتمطى وينكمش وفقاً لحركتك

فى السير، يظهر ثم يتلاشى إذا وقع عليه ظل دار مرتفعة البناء.

حين دنوت من معمل الجبن رميت السلام على صاحبه الجالس على كرسى أمام الباب بانتظار قدوم النسوة بحلبة المساء.

مكتوب عليك ياحودة أن ترى خروجهن مرتين..

تعمل اليوم بطوله بين حلبتين للماشية..

تبدأ نهارك مع الفجر، وتنهيه مع أذان المغرب.

ليس هذا فقط، لا راحة لك بعد، مطلوب أن تشطف بدنك سريعاً، الخروج بعربة الكبدة، لتبدأ السهرة. كد وجهد، عمل متواصل، لا راحة لك حتى تضمك ظلمة القبر.

ربما إذا تزوجت انفصلت عن أخيك، وأكتفيت بعملك بالمحل لتجد الوقت الكافى مع زوجتك، تلاعبها، وتداعبها، تخطف القبلة، وتضمها فى حضن طويل، يعوضك عن زمن الحرمان، فلتأت هى ، وليكن ما يكون، ستمنحها أوقاتاً للمتعة لتهنأ بها عمرها كله، فلا تبص لأحد غيرك، واملأ عينيها كرجل فحل، ليس كمثله أحد، فلا تلتفت عن يمينها أو عن شمالها، وهل سيتركها لتجد فرصة لهذا الأمر؟

رأى النسوة من الجارات مجتمعات فى ظلة سور البيت الكبير، تميل عليهن من علٍ أغصان التوت كثيفة الظل. أشرن إليك فاقتربت متردداً.

هؤلاء الشمطاوات سيبدأن الثرثرة، سيسألنك، ولكنك ستراوغهن، فهن لا يملكن غير ألسنة طويلة، تنقل الأخبار ببراعة، فى كل الانحاء، ثم إنهن دوماً يسخرن من الجميع، ولا يعجبهن العجب، ولا الصيام فى رجب.

لمح فكيهة بينهن بثوبها الصيفى الخفيف «تعذبنى هذه المرأة. آه لو كانت عروسى فى جمالها، والله لن تنقطع لى عبادة، سأقيم الخمس، وأصلى

الفجر حاضراً، واسجد لله صبحاً ومساءً».

كانت فلقتى الثدييني تضويان مع آخر شعاع، فتدلى فكك السفلى، وأحسست بروالك يسيل دون وعى منك، وهى القاتلة لم تكتف بذلك، أطلقت يديها لتبديا إبطيها النظيفين، فكت عقدة منديل الرأس الملون، ورفعتها عن شعرها، فانساب سواده على ظهرها، وسقط بعضه ليغطى أقراطها، لفته فى كعكة كبيرة، أجادت عقدها من الخلف، ثم أعادت المنديل إلى وضعه، بعد أن أحكمت ربط شريطيه، وتركت خصلة لامعة مدلاة عند الجبهة، وفاجأتك بغمزة من عينها.

كدت تنتصب، فضغطت على نفسك بشدة، وكززت على أسنانك، فهبط الإنتصاب من تلقاء نفسه حين تنقلت عيناك بين أخريات. سقط بصرك على (أم على) صاحبة البيت تجمع عظامها النحيلة فى شاش قديم، تآكلت أطرافه، كانت تحدق فيك بعين يقظة لا يفارقها البلل السائل على تجاعيد الوجه، برزت شعيرات داكنة فوق شفتيها وعلى امتداد ذقنها. إلى جوارها تتربع زوجة (أبو سنة) ببنيانها القوى الراسخ لها نظرات مبتذلة، وتعليقات سوقية، تضحك لها النسوة، ويهمسن بها فى السر. امرأة خبرت الحياة، ودارت فى أسواق الدنيا، وعرفت العالى من الواطى، تاجرة سمك بجدارة، مستنفزة دوماً، ولا تدع فرصة لامرأة تمديدها إلى (المشنة) أبداً، تفقع الشخرة صارخة فى وجهها: شيلى إيدك لاقطعها. وحين تستنكر الزبونة لهجتها، تهب فى وجهها: امشى يالبوة من قدامى خلى يومك يعدى.

لا يهمها إذا باعت أو اشترت، لها زبون محدد سلفاً، تبيع له أسماكها، بل تحجزها له، ولما يهل عليها بين زحام السوق، تستقبله بتهليلة صادقة:

نهارنا فل بالصلاة ع النبي.

وحين يقف أمامها على الفرشة تكون قد سبقته في لف الكمية المطلوبة دون حاجة إلى الوزن، يدها من طول الخبرة صارت كالميزان: طلبك حاضر.

ولما يمد يده بالثمن تدفعها بحماس حقيقي: والنبي تخلي.

التصقت ابنتها ببنائها العظيم. كانت تركز على الفخذ الشامخ واضعة ذقنها على كفها تتأملك. وتبسم إليك، تفاديت النظر إليها، وشعرت اللحظة بالغثيان. هذه البنت راشحة من أسفل «أقطع ذراعي إن قامت سنجدها راقدة على بركة من الماء» «هل عميت عيناى حين لم أدرك ذلك؟» «جميل أن أتزوج بامرأة تنشر سراويلها المبللة على داير السرير كل صباح». «سألاحق عليها أم على أولادى منها»؟ «تغور من وش أمها». «والحمد لله أن المعلم انقذني بزيجة مضمونة، وبدون تكلفة».

قلن لك في صوت واحد: مبروك ياحودة.

فرفعت لهن يدك عالياً لتضمها على رأسك محنياً قليلاً إلى الأمام في تواضع ذليل، وأشرت لهن بكلتا يديك داعياً لهن بأن يبارك في بناتهن ليجدن أولاد الحلال، ويسترن في بيوتهن.

كن كلما رأينك مقبلاً يكركعن، ويبدأن في مداعبتك.. و.. وتبدأ أنت في مغازلتهن، فتغمز مرة، وتقرص في الخصر مرة، أو بحركة خفيفة تجعل يدك تثب إلى صدر واحدة منهن، ثم تروح تقلد رجالهن في مشيهم، وفي الطريقة التي يدخنون بها الجوزة، أو تسرد لهن - بالإشارة - بعضاً من خفاياهن، أو تُسر لهن عن واحدة غائبة عن الحلقة.

إن لم تكن في مشوار أو مشغول بعمل تقعد بينهن حول قفة الحب تنقيها من الطوب الصغير، وتشاركهن في قطف أوراق الملوخية والخبيزة، والصبي

الذى يلهو بينهن أو الرضيع الذى تلفه أمه فى حجرها، ترفعه بين ذراعيك تعضه مرة، أو تدغدغ جوانبه مرة، ولا تتركه حتى يبكى لا عن كراهية - معاذ الله - ولكن مداعباتك - هكذا - قاسية جافة، وأصابعك التى تغرسها فى لحومهم اللينة رفيعة متشنجة، ولامانع عندك حين تريد إعادة الرضيع إلى أمه الخائفة عليه من أن تدع ظهر كفك يغوص فى ثدييها الكبيرين الممتلئين.

اليوم لا وقت لديك لكل هذا اللهو، فرأسك مشغول بألف شغلانة.

قلن لك : حيجوزوك ياحودة.

فجلست بينهن لبعض الوقت تحكى لهن ما دار بينك وبين المعلم عثمان - أشرت : المعلم (فتلت الشارب، ونفخت وجهك، وصنعت إنبعاجة على البطن) سيزوجنى (أدرت خاتماً وهمياً فى البنصر، ولصقت السبابتين، ثم صنعت ثدياً على الصدر) سيتم ذلك يوم الخميس (أكدت بأصبعك ثلاث مرات) وقد انتقى لى عروساً كالقمر (قبلّت أصابعك الملمومة، وأشرت إلى السماء) ثم طلبت إليهن أن يحضرن زفافك ليرقصن ويطلقن الزغاريد (سقّفت فمك بكفك، وحركت لسانك بزغرودة طويلة ممطوطة).

ولما طلبن إليك أن تقص عليهن ما ستفعله مع عروسك المقبلة احتضنت الهواء بحنان، ونظرت جهة فكيهة مشبوباً، أغمضت عينيك، ومططت شفتيك لتقبل بلهفة وعذوبة اليد والكتفين.

وأشارت لك فكيهة بأنها سوف تلعب بذيلها، بدأت تصرخ فى شخص خفى تراه أنت دون غيرك بررره .. بررره. خبطن صدورهن، واستغرقن فى ضحك قطعته إفاقة متأخرة اعقبتها «يخرب بيتك يا أخرس».

تركتهن غاضباً تدفع يدك بعنف فى كل اتجاه، تدور عليهن ساخطاً،

وتعود للنظر أمامك لتوازن جسدك مع حفر الشارع وبصقت خلف ظهرك قبل أن تدخل من الباب، حيث التقيت في المدخل الممتد بعايدة العمياء تضع الطبلة الفخار تحت إبطها، تنقر عليها بمهارة لتراقص أختها الصغيرة العمياء التى حزمت وسطها بقطعة قماش قديمة. سحبتها من رأس أختها الوسطى نوال التى استغرقت فى التصفيق على إيقاع الطبلة.

واندهشت من هؤلاء العمياوات المبتهجات دائماً، لا يعكر صفو حياتهن شيء، ولا ينشغلن بأكثر من رحلة (التُرب) واللف على البيوت لقراءة الراتب.

عايدة فاتها سن الزواج، وصارت كهلة، تبرز الشعيرات السميكة على أصداغها، ويبرز ضبها خارج الفم مع لثة حمراء دامية، استسلمت لمصيرها، واكتفت بحفظ قصار السور، وبعض الأغانى التى تقيم بها الأعراس فى مجتمع النساء حين يدعونها لمثل هذا الأمر، تنال نصيبها، وتعود به إلى الدار سعيدة بما حصلت من مال وبما ترفعه أختها من آنية تفيض بطعام العرس. تعطى المال لأمها، ويجتمعن على الطعام، ينقلنه إلى أفواههن الشرهة، ويتمن في بهجة لا يعادلها فى الدنيا بهجة أخرى.

بينما أنت ساخط لحالك، غير راضٍ بما قسمه الله لك، تريد أن تحوز بيتاً خالصاً لك، لا غرفة تشارك أخاك إيجارها، وتشاركه فى إقامة طال مداها جداً، وكانت حتى أول النهار تبدو ألا نهاية لها «الحمد لله الذى ألهم معلمى فانتقى لى العروس، والبيت الجديد، وتكفل بأمرى، فلن أخسر مليماً، وأنا من جهتى استحق الخير، قضيت عمرى معه، أخدمه فى الصغيرة والكبيرة، ألا

يحق له أن يجازينى وأنا رجله».

انحرفت جهة الباب قليلاً لتعطى الفرصة لتلميذ الأزهر الذى أحكم غلق باب غرفته، وخرج مائلاً على ساقه المريضة، يضغط عليها بيده ، ويسحب الأخرى وراءه، ليثير غباراً خفيفاً. كان مبللاً تماماً يقطر ماء الوضوء من أطراف شعره، ومن أصابع كفيه، والتقط أنفك رائحة المسك تفوح من جلبابه الأبيض النظيف، أسند يده على الجدار، وأشار لك بالتحية فهمهمت بـ «آب.. آب..» تدعو له بالخير والصلاح، وأشرت إليه أن يدعو لك، ولا ينساك فى صلاته.

وفوجئت بإشارة الجار، وكنت تظنه آخر من يعلم، فهو غريب، ولا صلة له بأحد، يكتفى بالتردد على المعهد، ثم يقضى يومه مكباً على كتبه، فى ظلام غرفته، ولا يراه إلا خارجاً إلى المسجد أو قادماً من المسجد.

– عقبال البكارى.

– آب .. آب .

وانعتق غلق القفل فى يدك، سحبته من الرزة، واقتحمت ظلمة تبحث عن أدوات الحموم لتشطف بدنك، وتدعكه بالليفة ليجلو الجلد من طبقات الوسخ المتراكمة من دم البهيمة المختلط بعرق الجرى، وعرق النوم فى حجرة لا تدخلها شمس الله الحية.

وقفت عارياً فى الطشت بعد أن ملأت كفك اليسرى برغوة الصابونة، رفعت قضيبك النائم لتدلكه بنعومة، وتوقظ شهوته الخامدة، أغمضت عينيك، ورحت تستدعى نسوة السوق، تركّب من قطع الأجساد التى احتجزتها امرأة كاملة، كعادتك كل يوم.

ودائماً تتغلب فكيهة على الجميع، تمحوهن من خيالك لتتصدر المشهد،

بعريها المخبل، تصير كل النساء، لا امرأة واحدة، ويبدأ مشهدها الذى رأيته ذات ليلة ثابتاً، لا خلاص منه، كانت الحشيشة قد أطاحت بعقلك وعدت من سهرتك مسطولاً تماماً، ولما اقتربت من الباب الكبير نازعتك نفسك أن تبص من خصاص النافذة الخشبية الطويلة المطلة على المدخل.

ورأيت فكرى محشوراً بين هضبتى فخذيها الشامخين، تعطيه، وتأخذ منه، بهزات خفيفة، ترتفع حدتها الهوينى، ووجهها المعذب بالمتعة يدور على الوسادة ناثراً الخصلات العرقانة، نسيت نفسك ياحودة، وغرست كامل وجهك بين الضلفتين اللتين انفتحتا التصقتا بالجدارين، ولشدة استغراقك فى المشاهدة لم تدرٍ أن رأسك مرق من بين قضيبى الحديد.

حين وصل الزوجان إلى ذروتهما الهائجة تجاوبت معهما فصرخت بعزم صوتك، فالتفت إليك فكرى من وراء ظهره، وانسحب بعربة هادئاً متماسكاً، حاولت تخليص الرأس الساقط إلي الداخل، فضغطها الحديد، بلا رحمة، كأنما تمدد للحظة، ثم عاد إلى انقباضته.

وفكيهة التى قامت مذعورة جمعت جسدها تحت الغطاء تزوم، وتسب، وتشوح، وظللت مشغولاً بتخليص رأسك حتى جاءك فكرى من الخلف يكيل لك الضربات على مؤخرتك بنعل ثقيل يحمل كل أدران الأرض الملوثة. وأنت لا تقدر على الصراخ حتى لا توقظ الجيران، ولا ينتبه إلى فعلتك أخوك النائم فى الغرفة المجاورة، تتلقى الآلام بصمت حتى استطاع فكرى أن يشد القضيبين كلاً فى جهة، وسحب الرأس ليدفعك بعنف إلى الجدار.

داخ رأسك، فسقطت على الأرض، ولم تنتبه لنومتك حتى جاءك صوت أمين الأعمى من مئذنة جامع السوق.

اليوم آثرت أن توفر ماءك ليوم عرسك فلا يهدر ويظل محتفظاً بعنفوانه، ملت على الاناء تنقل ماءه الفاتر على جسدك الذى دلكته بالليفة جيداً.

بعدها .. خرجت من الطشت تجفف ما بين إبطيك وفخذيك بفوطة مهترئة، ودخلت فى الجلباب النظيف، وتمليت كثيراً الوجه الجاف فى بقايا المرآة المغروسة فى طين الجدار، ونثرت قطرات العطر من زجاجة صغيرة، ترقد بينى طيات الهدوم.

بعد أذان المغرب خرجت من غرفتك مسبسب الشعر، تخب فى الجلباب، وتدفع العربة أمامك، لم تكلم النسوة حين مررت على حلقتهن، ولم تلتفت إلى إشارتهن، فأنت الآن جاد وصارم متجه إلى مجتمع الرجال، ستدعوهم للسمر فى عرس يمتد لآخر الليل.

وهناك على مقهى متولى قد تلتقى بأفندى يشير إليك بالذهاب إلي تاجر الحشيش، وتوافق إذا رأيت استحقاقه للمشوار الطويل، ولا تمانع فى إعداد الجوزة والنار والمصفاة، وتبدأ الـرص، تطقطق حجرين حتى يأتى زكى، فتبدأ بإشعال نار الموقد، فإذا صفت النار وراقت أدخلته أسفل صينية القلى الواسعة، تدلق الزيت فيها، ويفرد زكى الكبدة داخل الفاترينه الزجاجية، يقطعها قطعاً صغيرة على قُرمة خشبية سميكة يغمسها فى الردة الخشنة، ثم يرفعها إلى الصينية لتتابعها أنت بالمقصوصة ذات اليد الطويلة.

تغسل الطماطم والخضار جيداً فى صنبور المقهى، وتعد سلاطة حريفة، ويكون زكى قد أحضر الخبز الطازج معه من الطابونة، يفرده على سطح الفاترينة ليجف قليلاً.

إذا حضر الزبون يطوى الرغيف، ويجعله شطيرة واحدة يملأها بقطع الكبدة بعد وزنها، ثم يرش عليها البقدونس وقطع السلاطة.

ومن حين لآخر يلكزك لتنادى على الزبون، وتصيح بأعلى صوت:

– بيك .. بيك ..

لا علاقة لبضاعتك بما تهتف به، ولكن زبونك من المترددين على المقاهى، أو صبية الموقف، أو الغرباء المارين علي البلد فى رحلة ليلية طويلة يدركون مقصدك، ويعجبهم نداءك، والرغبة المحبوسة فى الإعلان عن طعامك.

بل ربما جاء البعض خصيصاً لا من أجل الحصول على ساندوتش ولكن رغبة فى الهزار معك، ومعاكستك بما يثير حفيظتك ويستفزك، ولا يطلقك حتى تهدده بالمقصوصة، تشيح رأسه، وقد يصل الأمر بأن تترك الفرشة لتجرى وراءه مهدداً، جاعلاً يدك على عنقك لتقول له بالإشارة: «سأذبحك إذا تمكنت من الإمساك بك».

## — ٥ —

صلى الشيخ سعدون العشاء فى الجامع الكبير، انخلع من المصلين خلسة حتى لا يسأله شقيقه الحاج رضوان عن وجهته، وهو يتلو قصار السور التى اتبعها بأدعية دخول الليل، والمسبحة التسع والتسعون الطويلة الملونة لا تفارق يده.

لم يتجه إلى بيته المواجه للجامع، واتخذ طريقه هابطاً العلواية إلى حى السوق.

«الأولاد ليسوا فى حاجة لسهرتى، ولا لوجودى معهم، إنهم يلتفون حول عمهم رضوان، واكتفوا به أباً، يهللون لبعض الوقت عند دخولى المفاجىء عليهم، سرعان ما يتلهون عنى، ولا يرضى واحد منهم المبيت بحضنى، القسم الذى يقيم فيه العم هو بيتهم، ويمرون على حجرتى كالغرباء.

وزوجتى لا تنتظر منى الكثير، فلا رجاء لى معها، تعيش فى البيت ليس حباً فيه، وتعلقاً بشخصى، لتصير – كما تقول – قريبة من الأولاد، ثم إنها لا تملك مأوى بديلاً عنه».

همود ، ووخم عاطفى، ومعاشرة تعافها النفس.. لم يحدث هذا فجأة ، وإنما على مراحل، وكانت النهاية حين اشتكى ضعفه معها لاصدقاء السهرة فى غرزة (أبو عاشور) وانبرى واحد منهم ليقول: علاجك عندى.

- الحقنى به الله لا يسيئك.

- بكرة يكون عندك .. وتدعى لى فى ليلة مفترجة.

- ادعى لك بزيارة الرسول إن شاء الله.

وفى الليلة التالية طلب طقماً من (أبو عاشور) وحلف على الرجال ألا يقطع واحد منهم من حشيشته:

- الدعوة دعوتى.

وانتظر الصديق الذى يحمل معه دواءه، وجاء متأخراً. وسعوا له فى الحلقة، وحين مد القنصل الغابة لفم الشيخ حركها بلطف جهة صديقه، وحدق فيه مباشرة:

- مساء الهنا يا أسطى.

وطقطق الأسطى العجلاتى النار حتى فرقعت، وتراقصت جمراتها على الحجر، ثم شد نفساً قلب به أحشاء الجوزة حتى طفح الماء على شدقيه، واتقدت نار بيضاء صافية، أتت على المعسل والتعميرة، فلم تبق شيئاً.

- الله ينور .. قلبك أبيض.

وصفق الشيخ بكفيه، وترنح (أبو عاشور) فى جلسته خلف الرمالة، ثم مسح اللحية المرسلة، دون شارب.

- حبيبى يانبى.

وقضى الأسطى السهرة دون أن يبدى أى إشارة بأنه احضر دواء الشيخ، وانتظر حتى خرج إلى ظلام الشارع، سحبه على جنب، ومد له يده بـ (حُق) صغير:

- قبل ما تقرب من الجماعة ما تشربش ميه، مفيش مانع من لقمة خفيفة، ولما تحس بنية الإنتصاب تاخد بأصبعك، وتدهنه كله.

– من أوله لآخره؟

– طبعاً .. حنوقف حتة ونسيب حتة؟!!

– يعنى مش حيسبنى فى نص السكة وينام.

– إن شاء الكريم حديد للصبح.

فعل بنصيحة الرجل، وشعر بالإنطفاء بغتة، بعد الدخول بقليل، أراد أن ينسحب، فلم يستجب له، شد جسده عن المرأة . لا استجابة، ظل معلقاً من أسفل، كأنما جنى أمسك به من الداخل ولا يريد إفلاته.

حاول مرة، ومرة ، ومرات ..

وسال العرق غزيراً على الجسدين العريانين، مد يده تشد من أسفل، لا شىء يتحرك من مكانه، حاولت المرأة رفعه بذراعيها، دون فائدة ، فصرخ :

– يا أخويا الحاج رضوان.

وخرج صوته فى صمت الليل مستغيثاً ولا مجيب.

– الحقونى ياهوووووه.. الحقنى ياحاج رضوان. واقتحم عليه أخوه الحجرة، وحين وقعت عيناه على المشهد، رجع بظهره ليدفع زوجته والأولاد بعيداً، ثم دخل وحيداً بعد أن أحكم غلق الباب، واطفأ المصباح. تقدم من السرير، يشد الشيخ من الخلف، صائحاً فيه :

– ساعدنى يا أهبل.

فيدفع ساعديه على الجنبين، ويحاول القيام بمؤخرته. وسحب الحاج رضوان القلة الموضوعة فى إناء بالقرب من السرير، ورش فى موضع الإلتصاق، فانقلب الشيخ على جنبه لاهثاً، وتوارت المرأة تحت الغطاء باكية بحرقة.

خرج الحاج رضوان وهو يضرب الكف بالكف:

- الله يلعنك .. الله يلعنك..

وانقطع الشيخ عن الذهاب إلى غرزة (أبو عاشور).

وكان العجلاتى كلما التقاه فى طريق، يسأله عن الوصفة يجيبه كذباً حتى لا يصير أحدوثة فى البلد:

- مية مية.

ويضبط نفسه بالعافية حتى لايميل على عنقه ، فيضغط عليه حتى يفصل رأسه عن بدنه .

- سلام ورحمة الله وبركاته .

- على فين العزم ؟

- مشوار بسيط كدا .

- ننتظرك ؟

- أيوه .

هكذا كان يجيب من يسأله من أصدقاء الغرزة ، ويبدأ يميل إلى الوراء حتى لايغلبه انحدار الشارع في ظلمة غير آمنة .

وإذا اقترب من عامود نور رأى الأولاد مجتمعين فى دائرته ، يتركون لهوهم ولعبهم ويتجهون إليه بفرح ، يلتفون حوله ويمسكون أطراف قفطانه ويتشبثون بأكمامه ويسحبون شال الحرير الساقط على صدره من الجهتين .

- الشيخ سعدون ..أدينا البركة .

فيخرج زجاجة المسك الصغيرة من قاع الجيب الواسع ، ويرش عليهم ، يمدون أياديهم ويفتحون أكفهم فيقطر فيها السائل تقطيراً خفيفاً ، يرفعونه إلى وجوههم ، ويمسحون به على جلابيبهم ، ولا يكتفون بذلك ، يلاحقونه

حتى يخرج حبات السودانى فيرشها فوق رؤوسهم فيتخاطفونها بالأيدى أو ينبشون عليها فى تراب الشارع .

- أدينا البركة .

فيكبش من جيبه الآخر حبات الكراملة المخلوطة بالدقيق ويرشها عليهم ، فيضاعف صراخهم ، ويتهافتون على الحبات المسكرة .

ويدعهم فى بحثهم عن الحبات التى أبتلعها التراب إلى حلقة أخرى ، عند عامود آخر .

والمشوار الذى يقطعه فى ربع الساعة يقضيه فى أكثر من ساعتين فهو عاجز عن التخلص من الأطفال ، هو يعشقهم ، وهم يبادلونه العشق ، يتمسحون به ، ويتنشقون ريحه التى تفوح من هندامه النظيف دوماً .

إنهم - هؤلاء الأبرياء - لايدرون وجهته ، ولا يدرون مايدبر فى رأسه من أمر .

وانتبه لهذا التناقض المفزع ، علاقته النقية بهؤلاء الأطفال وما يخطط فى سره ، من أجل المعلم ، صديق عمره ، على كل الأحوال هو لايغضب الله ، فالأخرس قد أخطأ ، لاشك ، ولابد من أن ينال جزاءه «الجميع يعلم خطتنا ، والبلد كلها تؤيدنا، ولكل أسبابه ، ثم إننى لن أنسى فعلته معى خاصة ..».

«سنوات طويلة مضت ، ولكن كلما تذكرت الواقعة اشتعلت النار فى الجزء السفلى من جسدى ..» .

ذات عصرية صيفية لاهبة ، كان الشيخ سعدون محنياً على الحصير ، يثبت سماره ، ويربط خيطه ، فى هذه الرحبة الواسعة القريبة من المحل .

مؤخرته داخل سرواله البفتة مرتفعة إلى أعلى ، ويميل بظهره كله على ساعديه اللذين يعملان بهمة ، ورأسه داخل العمامة المزهرة غطس ما بين كتفيه ، لايرى غير بياض الحصير وخطوطه الطولية التى يضمها بشدة لتحفظ له قوته ، وصموده للزمن .

وإذا قالب الطوب ينفلت من يد أحدهم ، ويأخذ فى طريقه المحاشم المدلاة من خلف ، فينبطح الشيخ - وهو يعانى ألماً شديداً - على بطنه ، وقد أطلق الآهة التى أرتجت لها دور الحى ، ثم بدأ يتقلب على جنبيه رافعاً ساقيه إلى أعلى ممسكاً ما بينهما بكفيه صائحاً بوجع لايتحمله بغل : نار الله الموقدة .. نار الله الموقدة .

بعدها لم ينطق بحرف ، وسقط فى غيبوبة ، لم يفق منها إلا فى غرفة بيضاء من غرف المستشفى ، قام دائخاً ، لايهمه غير معرفة رامى الحجر .

قالوا له : لايهم .. الحمد لله جات سليمة .

- مش حيرتاح لى بال إلا لما أعرفه .

- وإيه الفايدة ؟

- انتقم منه ومن عيلته .

- وإذا كان ربك أنتقم أصلاً فعقد لسانه ، وهو عديم العيلة .

- الأخرس !!

- هو بعينه «تار بايت يامنجوس ولم يفلح الزمن فى محوه ..» . هاهو يقف وراء العربة تحت نور النيون إلى جوار أخيه ، يقلب قطع الكبدة بالمقصوصة ، ويملأ الشارع الكبير بصراخه : بيك .. بيك ..

وطغى على الصراخ صوت جرس البلوك الذى يعلن عن قدوم قطار

التاسعة . كان الشيخ قد عبر البوابة قبل إنغلاقها ، ومرت بين السيارات والماشية التى حجزت على الجهتين ، نظر يمينا ثم شمالاً ليقطع طريق الأسفلت ، وصار الآن في البقعة الضاجة بأنوار فرش الفاكهة وعربة البليلة الزاهية ببياضها الناصع تتماوج من أوانيها أبخرة شهية ، سال لعاب الشيخ ، ولكنه لايجد الوقت الكافى لتناول طبق بليلة بالقشطة والمكسرات ، نادى عليه زبائن قهوة متولى : تفضل يا مولانا .

– بارك الله فيك .

– كرسى معسل ع الماشى .

– بطلته والله .

– يازكى .. تسمح كلمة .

ترك زكى ما بيده ، وخرج من نور النيون ليدنو من الشيخ الذى مال عليه محذراً :

– إياك يكون صعب عليك ونبهته .

– عيب يا مولانا .. دى أوامر المعلم .

– كله لمصلحتك علشان يهمد ويعلم أن الله حق .

كان حودة يتابع الحديث وهو يقلب الكبدة ، ولكنه لايدرى شيئاً ، لم يسمح له الظلام بالتقاط حركة الشفاة ، هو يجيد قراءتها يحدق فيها فيعلم إن كان يسبه أم يردد كلاماً لا علاقة به ، ترك المقصوصة على حافة الصينية ، ولحق بهما ، سأل الشيخ بالإشارة : هل المعلم لم يزل على وعده ؟

ورد عليه الشيخ بالإشارة : هو لعب عيال !! طبعاً .

ومـد حودة بوزه ليقبل كتف الشيخ ، ويرفع يده إلى السماء صائحاً :

آب .. آب . واشار إليه : البركة فيك .. ولكن كيف سيكون الأمر وهو لايملك حجرة مستقلة ؟ ولا أثاث يصلح لتأثيث بيت جديد ، ولا ملابس تليق بالعرس ؟ فأشار إليه الشيخ : إن المعلم سيتكفل بكل هذا .. وأنا فى سبيلى إلى تنفيذ ما أمر به .. سيكون لك بيت وأثاث .

رفع حودة يديه إلى جانبى وجهه : آب .. آب .

ليشكر الشيخ على مجهوده ، ولكن القلق مايزال مستقراً بقلبه وعاد ليسأل : هل سيقام لى عرس حقيقى بغوازى وراقصات ، وهل أتفقتم مع المأذون لعقد القران ؟

وطلب من الشيخ أن يعذره لكثرة أسئلته لأن البلد كلها قد علمت بالعرس، وهو يريد التأكد من حقيقته .

فضربه الشيخ على بطنه قائلاً : حط فى بطنك بطيخة صيفى .. كل شىء معمول حسابه .

- آب .. آب .

ولكن .. وعاد يسأل بأستخذاء : من هى العروس ؟ الكل يعرفها وأنا لا أعرفها .

وأشار إليه الشيخ : هذه مفاجأة ، وحين تراها ليلة عرسك ستشكرنى كثيراً لأنى - لا أحد غيرى - إخترتها لك ، ويكفى أن تعرف أنها من أجمل بنات البلد .

وعاد إلى عمله مطمئناً ، تشع بهجة وجهه على نور النيون فيضاعفه ، رفع نار الموقد تحت الصينية ، ورمى قطع الكبدة فى الزيت الساخن ، وصاح بصوت مغرد :

- بيك .. بيك .

حذر الشيخ زكى مرة أخرى ، وأضطر لأن يقول له مهدداً :

- حتقطع عيشك .. هو أخوك بصحيح لكن ياروح مابعدك روح . ثم دفعه نحو العربة ليكمل عمله .

- بارك الله فيك .

وأنحدر مرة أخرى إلى شارع السوق الضيق ، مال بظهره إلى الوراء حتى لايستجيب للهبوط المفاجىء ، وجمع أطراف قفطانه اللامع ليدفع باباً عتيقاً ، أستجاب لدفعه بثقل ، دخل بجنب واحتك كرشه بالضلفة المغلقة ، صفق بيده : يا أهل الدار .

كان المدخل مظلماً تماماً ، تحسس طريقه متلمساً الجدارين القريبين حتى وقف فى نور المصباح الأصفر الساقط من السقف . هنا ، رأى أجساداً تتحرك ، وسمع همهمات غامضة ، ولكن الرؤية لم تتضح بعد ، وسمع صوتاً أنثوياً يأتيه من عمق المكان : مين ؟ الشيخ سعدون !!

وصاح الجمع من حوله : أهلاً يا مولانا .

- أزيك يافرحة .

- زى ما أنت شايف .. بحطة إيدك .

وطرقت أنفه رائحة البوظة المعتقة .

مسحت فرحة يدها بخرقة قديمة ، وأقبلت عليه فاردة ذراعيها ، ودخل الشيخ بينهما ليرفعها عن القش المفروش على الأرض ، حدق فى عينها الحية ، وتجاهل العين الزجاجية المحملقة بثبات ، قبل صدغيها ، ومرر شعر لحيته على طرف أنفها .

- لسة حلوة يابت .

- وأنت اللهم صلى ع النبى بعفيتك .

- كان زمان وجبر .

ظل رافعاً البدن النحيل على هضبة كرشه حتى انتبهت إليه الكائنات الشبحية المنتشرة فوق القش ، فقامت مترنحة مستندة على بعضها البعض لتهلل وتصفق وتصفر بأفواهها المعوجة .

- هيصة .

- إشمعنى الشيخ ؟؟ ما أحنا معاكى كل يوم .

- حبيب القلب .

- اقعد يانتن منك له .

وقعدوا جميعاً مرة واحدة .

جذبوا الشيخ من ذيل القفطان : أقعد معانا .

- حاضر .

- سيبك منهم وتعال .

وسحبته فرحة من يده نحو الطاولة التى أصطفت عليها الأكواز الفارغة ، دخلت إلى ظلمة النصبة لتحضر كرسياً من الخوص المجدول ، لا ظهر له ولا مسند ، فرد عليه الشيخ مؤخرته المهولة ، بعد أن لملم أطراف هندامه .

ونزحت له فرحة من البرميل كوزاً كبيراً ، وضعته فوق المشمع السميك . ثم فردت ورقة الجريدة ، حيث مددت عليها مشطين من السمك المشوى ، وعيدان البصل الأخضر .

- بالهنا والشفا .

- متغيرش منهم واحد .

وأشار إلى زبائنها الذين أندمجوا فى حوار صاخب ، كان بينهم فاروق الحداد ، وفارس نجار السواقى ، وعبده الحلاق ، وأبو نعمة الخياط البلدى، أصحاب حرف أخنى عليها الدهر ، لم يعد أحد بحاجة إلى عملهم ، ولكنهم يصرون على فتح المحلات العتيقة ، يصحون من النجمة ليدخلوا شارع السوق يرفعون الخوص الحديد عن الأبواب ، ويقتعدون الدكك الخشبية المرقعة بمسامير غليظة .

لا يشعل فاروق ناراً ، ولا ينفخ كيراً ، يظل منتظراً أحد رجال القرى المجاورة ليسن منجلاً ، أو يطلب رأس فأس ، أو عامل الطاحونة الوحيدة فى البلد ليسن له الشواكيش التى يؤكد بها مجرى الحجر الصوان .

أما فارس فقد انقرضت مهنته تماماً ، بعد انتشار ماكينات الرى ، يكتفى بأن يدعوه أحدهم ليرفع الهياكل القديمة للسواقى ، وكان منشاره يوماً لايكف عن قطع أسنان التروس للكبير والصغير ، ربما عن لأحدهم أن يصنع طبلية من باب الوجاهة فيصنعها له مضطراً ، وهى لم تكن يوماً من أعماله الكبيرة .

وعبده الذى كان يرفع حقيبته الجلدية يمر بها على الفلاحين فى الحقول ، وعلى الأعيان فى بيوتهم ليحصل فى نهاية الموسم على نصيبه من نبات الأرض ، أهمله الجميع ، وعرفوا طريق الصالونات الجديدة التى تخدعهم بمراياها المطوعة على كل جدار ، ثم أن الأولاد الرقعاء يطلبون حلقات لايجيدها ، وصار هزءاً لهم يسخرون من حرفته ، وشكله التقليدى الذى عفى عليه الزمن .

هذا أيضا ما وقع لـ (أبو نعمة) فقد طاحت بحرفته الملابس الجاهزة ، لا

أحد اليوم يبحث عن الكشمير ، ولا عن قطعة الصوف الإنجليزى ، ولا أحد البوم يحتفى بتفصيل عباءة من الجوخ ، ولا صديرى بأزرار مصفوفة وواجهة حريرية لامعة . انتشرت الشركات ، ومحلات الملابس المستوردة ، وهل ينتظر كل موسم أن يأتيه أحدهم بقطعة قماش جاءته هدية من أحد العائدين من دول النفط ، ويطلب أشكالاً ما أنزل الله بها من سلطان ؟

يقضون النهار فى الجلوس أمام المحلات حتى إذا أذن لصلاة المغرب يعودون إلى بيوتهم ، برزقهم الشحيح ، ثم يتواعدون على اللقاء ، فى بوظة فرحة .

يجتمعون فى حلقة ، يسبون الزمن الغادر ، ويتذكرون أيام مجدهم الغابر، يلقون النظرات الشزراء على كل غريب ، مصرين على ألا يلحقوا بحلقتهم فرداً آخر ، خارج جماعتهم ، أكتفوا بأنفسهم ، وصار المكان الليلى هو متنفسهم الوحيد ، والملتقى الحميم الذى لايعوضه مكان .

- عدهم كدا .

- واحد أتنين تلاتة أربعة .. فين الخامس ؟

- تعيش أنت .

- إزاى !

وقصت عليه فرحة حكاية عزالدين مشعل الفوانيس ، أو عفريت الليل كما يذكرونه فيما بينهم .

قضى معهم السهرة كالمعتاد ، وحين أزف الرحيل خرجوا جماعة . على أول الشارع وقفوا ليودعوا بعضهم البعض حيث يتفرقون فى الشوارع ، كل إلى بيته ، ولكن - فى هذه الليلة - قال لهم فاروق :

- الليلة صيف ، والجو جميل ، نتمشى شوية .

واستجابوا له بسهولة :

- حنروح نعمل إيه ؟

وتماسكوا فيما بينهم ، وقطعوا شريط السكة الحديد متخذين طريقهم نحو الزراعية ، قال فارس :

- نتمشى ع البحر ، القمر مالى السما بالنور ، والهوا يرد الروح .

وتساندوا مرة أخرى حتى قطعوا الشارع إلى آخره .

وهناك وقفوا فوق الكوبرى الحديد يطلون على الماء المنساب بين روافعه .

وقال عزالدين :

- مين يراهننى على العوم للجهة التانية ؟

قالوا فى نفس واحد :

- نراهنك .. على كام ؟

- جنيه .

- ماشى .

رفعوه إلى سور الكوبرى ، وقف مترنحاً لبعض الوقت حتى فرد الذراعين عن آخرهما ، وملأ الهواء فراغ جلبابه من الداخل .

- واحد .. أتنين .. تلاتة .. هب .

ورمى جسده فى الماء ، ذهبوا إلى الجهة الأخرى ليكونوا بأنتظاره ، مكثوا ساعة وساعتين يحدقون فى الماء ، ولم يخرج عليهم أبداً حتى أشرق عليهم نور الفجر ، وتبخرت البوظة من رؤوسهم ، فبدأوا يهيلون التراب على وجوههم وينهنهون فى بكاء مرير .

أما عزالدين المسكين فقد أخرجوه بعد ثلاثة أيام ، طفت جثته هائمة على وجهها عند قنطرة تبعد عن البلد عشرين كيلومتر .

- الله يرحمه .. أمال حمادة أبنك فين ؟

- غريبة !! أول مرة تسأل عليه .

- عايزة فى موضوع .

- ناوى على الجواز ؟

- وكوم اللحم اللى فى الدار .

- البركة فى عمهم .

- عايزه فى جوازة تانية .

- خير .. مين ؟

- الواد حودة .

- الأخرس !! وأنت دخلك إيه ؟

- المعلم عثمان كلفنى بالموضوع .

- شوية ويطب علينا .. المهم كنت فين المرة دى ؟

- بلاد الله واسعة .

وقام أبو نعمة من بين الأشباح متجهاً إلى الشيخ ، أمسكه من ذراعه ، وجذبه نحوه :

- ما تقعد معانا شوية .

رفع الشيخ الكوز إلى فمه ، وتجرعه مرة واحدة ، أراد أن يميل بظهره رافعاً ساقيه فى الهواء فتذكر أن الكرسى بلا ظهر .

- حى .. ياجمال النبى .

- ما سألتش عن أصحابنا الغايبين .

- لسه عارف من فرحة ، البقية فى حياتكم فى عزالدين . وسأله عبده الحلاق :

- وما عرفتش اللى حصل لكاكا .

- آ .. صحيح .. كنتم ستة .

قام الشيخ جامعاً القفطان بين يديه ، أدخل المسبحة فى جيبه ، وجلس بينهم سانداً ظهره إلى الحائط ، وكان نور اللمبة الشاحب يتراقص أمام عينيه ، يعلو ويهبط ، ويدور دورة كاملة فى سقف المكان ، ومرة يناوره فتتقلب ألوان متعددة ، خضراء وحمراء وزرقاء ، ومرة يراه يتطوح بين الجدارين ، كأن يداً مجنونة أمسكت بالسلك وهزته بعنف .

- إيه إللى حصل لكاكا ؟

-وتولى عبده الحلاق - كشاهد عيان - إعادة الحكاية كما قصها على أهل البلد ، وكما قصها فى محضر الشرطة ، بدقة بارعة ، وتفصيل ممل .

وأختار أن يبدأ بالنهاية .

- ربنا يلطف به .. أهو فى المستشفى فيه روح وفينا روح .

- المستشفى !

- عنده غرغرينه فى رجليه .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

كاكا الفخرانى ، زهد الحياة فجأة ، وأعتزل جلسة الأصدقاء . الفاخورة مطفأة أبداً لم يعد تشعل لها نار ، من جهة صنعة الفخرانى صارت عملة نادرة ، ومن جهة الحكومة نحاربها لأنها تسبب «تلوث البيئة» على حد قولهم، رغم أنها تقوم فى أطراف البلد فضلاً عن ذلك فإن الزبون قد سعى إلى أدوات البلاستيك . ولم يعد بحاجة إلى القلة والإبريق ، وأستغنى عن المترد والبربخ والزير ، فقد صارت جميعها أعجوبة من الأعاجيب ، لا ضرورة لها .

أطلق كاكا لحيته ، وأقام فى جامع السوق لايفارقه .. ثم عن له فجأة - وكأنما هبط عليه وحى من السماء - أن يهدم الفاخورة ، ويحطم بقايا بضاعته .

حجز من مساحة الأرض قطعة صغيرة ، ضرب لها قوالب الطوب بنفسه، وأستدعى البنائين ليقيموا (زاوية) صغيرة يتعبد فيها وحده .بعد الإنتهاء من البناء .

وقف فى الناس ، وخطب فيهم قائلاً : الآن ستشهدون المعجزة . كان قد جمع كمية كبيرة من حطب القطن ، رش عليها قطرات الكيروسين ووقف وسطها ، وهتف بأعلى صوته : الحاضر يعلم الغائب أن نبى الله كاكا لن تمسسه النار بسوء .

وأخرج عود ثقاب من جيبه ، فأشعله ، ثم ألقى به فى الحطب .

رفع يديه إلى السماء يمسح على لحيته الكثة ، ويجفف دموعاً هطلت بغزارة على خديه ، ثم قال وهو يرتج : يانار كونى برداً وسلاماً على كاكا .

فأمسكت النار بذيل جلبابه ، ثم سحبت إلى سرواله ، حاول ألا يصرخ ، أو يستغيث ، ولكن الناس هجمت عليه ، ورفعته عنوة ، وأستدعوا له الإسعاف ، ظل يتملص منهم رافضاً الركوب على النقالة ، ويصرخ فى وجوههم : لماذا حرمتمونى من المعجزة .. يا كفرة .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

وضرب الشيخ كفاً بكف .

- الكافر عايز يقلد أبو الأنبياء .

– ما تقلش كافر .

– وما تقلش يقلد .

– ربك أعلم بأسراره .

– محمد خاتم النبيين .. ولا نسيتم ؟

– ما أنسناش .. دى كرامة ، بعدين ماتحطش نفسك فوق رؤوسنا وتفتى فيها .. هى ناقصة .

– حالك من حالنا .. وإلا أنت مش حصرى راحت عليه راخر ؟

– الحصير البلاستك قضى عليكم .

ونادت عليه فرحة من وراء الطاولة .

– تعال هنا ياشيخ وسيبهم فى حالهم .

فقام إليها الشيخ نافضاً قفطانه من القش الذى تشبث به . أمسك به فارس ليمنعه من الذهاب ، وليقول له بسخرية :

– ما سمعتش عن الموكيت ؟

– البركة فى المساجد مش حتستغنى عن الحصر .

– فرشوها موكيت يامولانا .

– ماسمعتش عن حمارة الدهشان بقى .

وذكرهم الشيخ بالحكاية .

كان الدهشان قد أجاع حمارته النحيلة عقاباً لها لإطاحتها إياه بحمل البرسيم عند عودته من الحقل مساءً ، قضت الحمارة يومين دون طعام تنظر إلى الجاموسة والبقرة متحسرة ، فقد ألقى إليهما الدهشان بكومة البرسيم كاملة ، ويذهب بهما إلى الحقل تاركاً الحمارة فى مربطها حتى ضاقت بنفسها ، وتمكنت من قطع الرتعة التى تقيد ساقيها ، وخرجت من الزريبة

إلى الشارع ، تشمشم بمنخاريها فى الزبالة ، تلتقط قحف الكرنب ، أو عرق الخس ، أو قشر البرتقالة إلى أن وقفت أمام الجامع ، فرأت الباب مفتوحاً على اخره ، وكان الوقت بين المغرب والعشاء ، ولا أحد هناك ، الجامع فارغ من المصلين تماماً ، ضربت بعينها فرأت الموكيت الأخضر الجديد يمتد حقلاً من البرسـيم الريان من المدخل حتى المحراب ، فعبرت الحاجز الخشبى إليه ، وقضمت منه حتى شبعت ، لم يزجرها أحد ، قضت المدة بين الصلاتين تأكل بنهم حتى قدوم المؤذن ليرفع أذان العشاء فوجدها قد أتت على نصفه ، وبدلاً من أن يرفع الأذان ، وقف على الباب صائحاً :

– يا أهل الحى .. حمارة الدهشان كلت الموكيت .

وقف الشيخ أمام الطاولة ، فوجد فرحة قد ملأت له الكوز مرة أخرى ، رفعه إلى فمه ، ودلقه مرة واحدة : حى .. ياجمال النبى . ، كاد يسقط على وجهه ، فأسرعت لتسنده من الخلف .

– أجمد أمال .. أقعد دوق المزة .

– عندى مشاوير مهمة .. وخايف من ريحة السمك والبصل .

– رايح لمرة ؟

– كان زمان .. الواحد يدوب صالب حيله .

– الدهن فى العتاقى .

– كلام بنقوله نصبر به نفسنا .

– الباشا وصل .

– عن إذنك حاخده على جنب .

مد حمادة يده للشيخ : مساء الخير ياشيخ .

- مساء الورد .

وأفلت الشيخ يده من الكف المبلولة ليأخذه فى حضنه طويلا ، يطبطب على ظهره ، ويتحسس بضاضته على الكتفين ، والزندين ، والوسط .

- صلاة النبى أحسن .

وقال في سره : سبحان الله له فى خلقه شئون ، الجسد جسد مرة ، والحس حس مرة ، مين بس حسبه ع الرجاله !!

- عايزك فى كلمتين .

- خير !!

وجره من يده نحو المدخل ، تأمل وجهه تحت المصباح الذى انسحب شحوبه عن بشرة الولد لغلبة بياضه ، فأشع ، وإضاء ، وأضفى على صفرته نورا ناصعا .

الحواجب مزججة ، والشفاه مدهونة بروج خفيف ، والكريم منح الخدين ليونة وضاءة .

والصدر المكشوف خال من الشعر ، تتدلى على اكتنازة لحمه سلسلة ذهبية رقيقة ، والقميص المشجر بألوان فاقعة ، ضيق عند الخصر ، ومشمور الأكمام ، كذلك السروال ذو الحزام العريض يضيق على المؤخرة المستديرة ، ويبرز نتوءاً أماميا محكم بسوستة متينة ، ثم يتسع عند القدمين ليفترش الأرض ، رغم الكعب العالى للنعل .

حمادة يهتم بزينته منذ الصغر ، لا يفارق المرآة حين يكون وحيدا فى البيت ، يغسل الشعر الطويل الناعم ، ويجففه بالسشوار ، ويمكث النهار بطوله يلتقط الشعيرات الخفيفة البارزة فى الوجه ، ولا يترك فرصة لنمو الشارب أبداً .

لديه صبر على معالجة جسده ، والإهتمام بنظافته ، يصنع السكر المخلوط بالليمون ليزيل شعر الساقين والذراعين والصدر .

والملقاط أحد أدواته الأساسية لا يفارق جيبه ، حين تراه مشغولا بأمر أو حين ينتابه القلق لسبب من الأسباب يرفعه بين الإبهام والسبابة ، ويجذب الشعيرات الدقيقة بتوتر .

لا تهتم أمه بعالمه الخاص ، هى طلبته من الله ، فاستجاب لها ، أن يكون ولدا أو بنتا لا يهم ، عاشت مع زوجها الراحل عشر سنوات ، دفنت الكثير من أبنائها المبتسرين فى مقابر الصدقة ، كما اسقطت عدداً آخر ، دفنته فى جحور البيت . مات عنها زوجها وحمادة عنقود دموى يتكاثر فى أحشائها .

حين خرج إلى الدنيا تلقفته جدته التى كانت تدير البوظة منذ عهد بعيد ، وقالت : سنبيعه لولى من أولياء الله الصالحين حتى يرعاه بمعرفته ، واستجابت فرحة لكل وصفة تسمعها من نسوة الحى : لابد وأن تطعمى بعضا من برازه ، لا مانع ، وغمست لقمتها دون تردد .

– أشربى حليب الآتان .

لا مانع ، وحلبوا لها حمارة الجيران ، وتجرعته دون أن تبدى شيئا من التقزز .

– ابحثى عن كلبة ولدت لتوها ، وأشربى من حليبها

وكان صعبا جدا عليها أن تحلب كلبة ، ولكن الجدة أمسكتها من بوزها ، ومالت فرحة على أثدائها العامرة ، وشدتهم الواحد بعد الآخر لتقطر من حليبها فى فمها .

وعاش الولد، وترعرع بين الأم والجدة . الحلقة فى أذنه ، وملابس البنات على بدنه ، فلا تصيبه العين الحاسدة ، واضطرت فرحة إلى العمل فى البوظة بعد رحيل الأم .

كانت تترك وحيدها فى البيت ، فأجاد العمل به ، كأى أنثى بارعة ، يكنس ، ويطبخ ، ويبدل الفرش ، ويغسل . كل هذا رحمة بأمه التى تقضى ليلها فى البوظة ونهارها فى النوم ، أو فى الإعداد لبوظة المساء .

وكان قبل رحيل الجدة قد تعلق بعالم الغوازى اللائى يهبطن البلد فى المولد ، وكن يقمن بعض لياليهن فى بوظة الجدة . استجاب جسده لإيقاع الطبل والرق ، وترقق صوته العذب ، وردد أغانيهن ، وتمثل حركاتهن وإيماءتهن .

بعد فترة ، لم تعد تكفيه مدة المولد ، فسعى معهن فى رحلاتهن ما بين المنصورة والسنبلاوين وميت غمر وطنطا وبنها البعيدة .

يمر الأسبوع فلا تراه أمه ، ثم بدأت المدة تطول أكثر ، فيغيب بالشهر ، قالت له أمه :

- اعمل لنفسك فرقة واشتغل معى .

فقال لها ساخطا :

- بلد بوز فقر .. لازم أوسع دايرة الشغل .

وكانت تفتح حقائبه فيدهشها وجود ملابس أنثوية خليعة ، ذات ألوان صارخة «ماذا يفعل الولد بملابس داخلية حريمى ؟ وملابس مفتوحة الساقين تبدى مساحات واسعة من الظهر والكتفين» ؟

هل تصدق ما تردده الألسنة ؟ لم لا .. فالولد يتشبه بالنساء فى كل شىء ، فى زينة جسده ، وفى رفضه لمجتمع الرجال . إنه لايطيق مجالسة

الرجـال هنا ، ومما أكـد لهـا الإشـاعـات عـثـورها علـى أدوات زينة فـى علب مـزخرفـة ، والولد تندب فى عينه رصاصة ، لا يهمـه أحد ، ولا يحـفل بحـديث الناس ، وأسلمت أمـرها لله . يكفى وجـوده معـها ، ونسـها الوحـيد فى هذه الدنيا .

– بص يا سيدى عايزينك فى شغلانة يوم الخميس .

– بس أنا محجوز الخميس.

– دفعوا لك؟

– أخدت عربون.

– ارمى لهم العربون.. حنديك بدله عشرة.

– فرح؟

– بالعربى.. لأ.

– أنا ما بعملش غير أفراح.

– شوية تمثيل.

– تمثيل؟؟ أنا عمرى ما مثلت.

– المرة دى عايزنيك تمثل.

وشرح له الشيخ وأفاض فى الشرح، وكان حمادة كلما أبدى أعتراضاً يتركه الشيخ حتى يكمل حديثه ثم ينبرى لدحض فكرته، وفى النهاية اقنعه تماماً، وأنهى الولد حديثه بالسؤال عن العريس.

– حودة الأخرس.

– الخرس دول شرسين ويمكن يعمل فىّ حاجة.

– الكل حيكون حواليك.. وكل حاجة معمول حسابها.

- ما شى.. حتدفعوا كام؟

- اللى تقول عليه.. المعلم عثمان متكفل بالموضوع من طقطق لسلام عليكم.

- عايزيين ميتين تحت الحساب، الكوافير، والهدوم، وخلافه.

- الصبح يكونوا عندك.. سلام عليكم.

رفعت الأشباح أيادٍ مهزوزة دون أن يخرج منها صوت واضح، ثم انكفأوا على بعضهم ليجددوا حديثهم الحميم المنبت الصلة بدنيا الحاضر.

وقدمت فرحة من خلف الطاولة تمسح كفها على جانبى الجلباب:

- بدرى.

- يادوب.

ومد إليها يده بالحساب.

- عيب يا شيخ حسابك وصل.

- كتر خيرك يا أم حمادة.

- الحساب عندى يا أمة.

- الظاهر أتفق معاك على فرح سُقع.

- يعنى.

- تعيش يا أخويا وتملا الدنيا أفراح.

وشكر الشيخ حمادة على الموافقة، كما شكره على دفع الحساب، ورفع لهما يده بالتحية، وجمع قفطانه على كرشه، بعد أن أخرج المسبحة الطويلة، وأطلقها بين أصابعه، وخرج من الباب إلى عتمة الشارع.

## – ٦ –

عند الكوبرى، فكر فى أن يرسل ولداً من سائقى الموتوسيكلات ليبتاع حشيشته من «الكفور» ولكنه تراجع، إنه يأتى عليها بلا رحمة، يقاسم الزبون بضاعته، يقضم بأسنانه الثمن أو الربع ويعيد لفها فى ورقة السوليفان ببراعة.

إنهم يصطفون هكذا ليلاً، ونهاراً، بالقرب من بوابة السكة الحديد، ينتظرون القطارات والسيارات حيث يصحبون أهل القرى المجاورة، خلف ظهورهم، يرتدون السويترات الجلدية ويضعون على رؤوسهم الخوذات الحديدية، ويرفعون على وجوههم نظارات قاتمة رخيصة.

حين مرق أمامهم، تقدم أحدهم إليه:

– مساء الورد يا شيخ.. أى خدمة؟

– متشكر يا بنى.

– الكفور نزلها بضاعة الأسبوع ده مية مية.. لسه جايب للحاج دسوقى الفسخانى حته إنما كدا.

ورفع إبهامه فى وجه الشيخ.

– شكراً يا أخويا.. مستورة الحمد لله.

قطع قضبان الحديد المغروسة بين حجارة البازلت السوداء، وأتخذ طريقه هابطاً إلي الجهة المعاكسة، يسير فى ظلمة يبددها من حين لآخر نور مصباح تائه، هنا أو هناك.

«أعوذ بالله عواميد المجلس كلها محروقة!!» ظل يتعثر فى الحفر، ويدوس بقع الماء حتى خرج أخيراً إلى نور مقهى «الظيظى»، وقف على جنب حتى أستطاع أن يشير إلى زوجته الواقفة على النصبة «ياساتر.. نفس الوشوش» وأحس بالملل يمسك بخناقه.

للبلد إيقاع ثابت، كل بلاد الدنيا.. قابلة للتغيير، ماعداها، لكل مقهى زبائنه، إذا أردت شخصاً بعينه فإنك لن تجهد فى العثور عليه إذهب يا ولد إلى قهوة فلان ستجده هناك ويأتى فى الحال.

خرجت «الظيظية» تجفف كفيها فى جانبى الجلباب «وشك ولا القمر.. يا دى النور.. تفضل».

– معلش عندى مشوار.. أمال إسماعيل فين؟

– آ.. ما أنت غايب عن البلد.. ربنا يفك حبسه.

– تانى!

– طول ما ورانا المدعوق ده حيبطل.

– رزقه واسع يا وليه.

– وكوم اللحم اللى سايبهولى.. أروح بيه فين؟ واد يا عمور.

وخرج من دفء المقهى طفلٌ صغير مشلوح من الخلف، زحف بيديه ورجليه ليتسلق العتبة حيث صعد إلي الشارع بوجهه الملوث وجلبابه الممزع من كل جانب، ضرب الشيخ يده فى جيب القفطان، ومدها إلى الطفل: خد يا حبيبى.

فزام الولد، وتشبث بجلباب أمه مخفياً وجهه ومصدراً ساقه نحو الشيخ.

– خد من الشيخ ياوله .. فلوسه بركة .

فنتش الولد البريزة خطفاً، وعاد ليختفى فى جلباب أمه.

– هو ده بسلامته؟

– هو .. فاكر؟

كان يجلس مع عمور صبى المعلم عثمان، وهى قبعت أمامهما بالجوزة بين يديها، ترفع الحجر من الطقم الخشبى، وتلقى بالمحروق فى صفيحة السمن النباتى القديمة، وكان كرشها ممدداً أمامها على آخره. إنها لم تتوجع، ولم تشك ألماً، تعمل بنشاط وهمة ما بين النصبة والخدمة على الزبون.

كان زوجها فى حبسة كهذه..

ولما رفع الشيخ الغابة إلى فمه، طقطق الحجر، واشتدت النار فى المعسل. أراد أن يلقى ظهره إلى الوراء منتشياً بالمخدر.

– يا جمال الحبيب النبى.

ثم عاد لينحنى إلى الأمام فرأى قطعة اللحم ساقطة بين فخذيها قال عمور وهو يغادر انتباهته الأخيرة ليدخل فى ضباب السطل فيأخذ عليه عقله، لا يفرق بين الواقع والخيال.

– شيلى الواد من الأرض.

ورد عليه الشيخ وهو يتراقص على مقعده.

– إدى الواد لأبوه.

فانتبهت «الظيظية» لما حدث، رفعت جلبابها حتى لا يلوثه الدم، ورفعت الوليد بين يديها، واختفت به وراء النصبة ايقظ عمور بناتها الكبار النائمات في ركن من المقهى ليستلمن عمل الأم.

– وما سمتوهوش على اسمي ليه؟ ما أنا كنت قاعد معاه.

– إحنا غلابة وبنسمي على أسامي الغلابة.

– ليكون ابنه يابت؟

– فشر.. دا أنا ما حدش يدوس لي على طرف.. راجل ينام مع راجل؟!!

– إسماعيل مرات يطول في السجن.

– إن شا الله العمر كله، توكل يا مولانا، الظاهر حتلخبط في الكلام وأنا مش فضيالك.. عاوز تقعد أهلا وسهلاً.. مش عاوز.. زق عجلك، دا مكان رزق.

– سيبتك بعافية..

– اشترى من النسناس، قاعد في داره عند الكنيسة.

– أنا رايح له.

غادر النور الشحيح إلى الظلمة، هدأ من سيره، ودنا من جدران البيوت ليستند عليها عند الحاجة، انبثق نور مقهى سمارة بعد فترة وجيزة. سطوعه المبهر أغشى بصره وجعل من الجالسين على الصفين أشباحاً، يرى كتلتها ولايتبين ملامحها، وأخذ لهتافهم على الجانبين.

– تفضل.

– تفضل يا مولانا.. كرسي معسل ع الماشي.

ورفع ذراعيه ليحي الجهتين، فسقط الجلباب والقفطان معاً، فاضطر إلى رفعها بيد، ويحي بالأخرى. بعدها سحب كفه ليسد بأصابعه طاقتي الأنف،

لم يطق رائحة الثوم الذى يقليه ابن سمارة مع قطع الكبدة المسودة فى غطاء الحلة المقلوب على قائم من الصفيح يختفى بداخله وابور يطلق من الهباب أكثر مما يعطى من النار.

انعطف بجسده الممتلئ جهة اليسار، فاستقبل باب الكنيسة المغلق، كان ينبعث من داخلها نور لمصابيح تختفى وراء أشجار العبل والكافور السامقة، ونور آخر يتوهج فى برج الجرس الذى يرتفع كثيراً عن البيوت القديمة المتهالكة التى تحيط بالكنيسة كان المبنى كله يختنق بين هذه البيوت التى تميل نحوه، ولا تترك لمنافذها غير شوارع ضيقة لا تتسع لغير إنسان واحد...

دخل الشارع من جهة اليمين، واحتوته ظلمة أخرى.. جعل كفه اليسرى على سور الكنيسة الحجرى، خشية السقوط فى مداخل الأبواب التى تبدو كحفر واسعة، تسحب الداخل إليها عنوة.

بعد مروره على أبواب ثلاثة، تقدم من النافذة التى ينحبس بين فرجاتها النور والدخان، وطرق بظهر السبابة، فلم يرد عليه أحد، فتنحنح، وصاح بصوت عال:

- يا نسناس.

لم يستجب أحد لندائه، قرب فمه من فرجة النافذة ونده بصوت خفيض:

- أنا الشيخ سعدون.

وانفتحت إحدى الضلفتين بحذر، وأطل رأس النسناس، حدق فى الوجه طويلاً، وتأمل البدن كله من العمامة إلى النعل، وقال بهدوء، ودون حماس:

- أهلاً يا شيخ.

- نايم؟

- مريح شوية.

- خد.

وألقى إليه بالمال كما قدره فى المرات السابقة.

- عايز إيه؟

- عايز اتأمل فى جمالك.

- دول ما ينفعوش.. الظاهر ما شربتوش من زمان.

- كل يوم باتنيل.

- هات قد دول كمان.

- دى للمعلم عثمان.

- ما هو عارف السعر.. كل سنة وأنت طيب الصنف حينقرض خلاص.

- لا اللى بيزرعه يستغنى عنه، ولا اللى بيبيعه حيسلاه، ولا اللى بيشر به حيتوب عنه.

- حيوسع لصنف تانى رخيص.

- بلاش فلسفة ارمي الحجرين خلينى امشى.

- هات كمان بريزة.

- جات على بريزة يا معفن.

- بريزة يعنى عشرة جنيه.

- الله أكبر.. خد بالسم والدم.

- وأنت خسران حاجة.. ما كله بحسابه.

- ليه عايش عواله على الناس؟

– أنت حتقولي.. الله يسهلك طريقك.

– إياك يكون مضروب.

– الله وكيلك عمرك شربت حجر مضروب من عندي؟

– الحقيقة لأ.. بس فين سنة الآفيون.. علشان أدعيلك.

– ومد النسناس يده بورقة في حجم الحمصة إلي الشيخ، فدسها تحت لسانه علي عجل، واتخذ طريقه نحو دار «أبو عاشور».

ينتهي الشارعان الضيقان اللذان يحوطان بالكنيسة إلى شارع واحد، متسع قليلاً، يصب في ساحة يتوسطها مقام «أبو زينة»، حين دنامنه الشيخ سعدون رفع يمناه الممسكة بالمسبحة، واستند بها على إطار النافذة، وامال رأسه بخشوع يطالع الضريح المكسو بالحرير الأخضر، ينهال النور عليه من مصدر خفي، فيمحو الظلال جميعاً، ويبقى الرأس الضخم المعمم بشال أبيض، زخرفت حوافه، وتناثرت على الجهتين، تضوي، وتلمع، في دائرة الضوء القوي حتى بانت الحروف السوداد الدقيقة المكتوبة على انحاء الضريح.

ردد الشيخ الفاتحة في سره، ثم مسح وجهه بكفيه، وأفاق من سحبة الروح التي تأخذه كلما وقع على مقام لولي من أولياء الله الصالحين. عاد بظهره إلى الوراء ، وسد طاقتي أنفه بأصبعه «الله يلعنك بلد» بحث عن أحد من جيران الضريح ليلومه، فوجد الأبواب والنوافذ مغلقة، والساحة ساكنة تماماً.

كيف يسمحون لأولادهم بالتبرز تحت جدار المقام هكذا؟ بل كيف يسمحون لنسائهم بدلق الماء القذر ، وبقايا الخضر ؟ اكتفوا بالعيش في كنفه، ولشدة سماحته لم يأخذ أحدا بفعلته، وهو القدير.

كم أهمل المقام، وصاحب المقام.

كان من حقه أن يضم فى مسجد فخيم، ولكن هؤلاء البؤساء تركوه مجرد قبة كبيرة، تقام على أربعة جدران، غطس نصف ارتفاعها فى الأرض ، وصارت حافة النافذة مساوية للشارع، ينبغي أن ننظر إليه عالياً، ولا نميل عليه فننظره إلى أسفل.

جمع أطراف القفطان فى قبضته، وغادر المكان بعد انطفاء لحظة التجلي التى تقبض على القلب، مسح دموع عينيه بمنديل كبير تجمع كخرقة فى جيبه.

وسمع فجأة الهتاف يتردد كصدي فى ساحة المكان: ياسعدون. فتلفت حوله، لم تقع عيناه على أحد، وثبت نظره فى كثافة الضوء الأبيض الذى يشع على خضرة الضريح ، فهيء له أن الهتاف قادم من وراء النافذة.

– ياسعدون.

ورمش بعينيه غير أن شدة الضوء أغشت الرؤية. وقف طويلاً عله يتعرف على داعى الهتاف، لم يتكرر مرة أخرى. فانحرف يميناً ليدخل الشارع الجانبى.

هاهنا تتسع الشوارع وتنتظم، ففى هذه البقعة حدود البلدة القديمة، وتبدأ الحدود الجديدة التى أنشئت على الأرض الزراعية بعد أن رحل عنها. فلاحوها، وباعها المالك كقطع صغيرة، كل قطعة تتسع لبيت.

دار «أبو عاشور» آخر الدور التى تعطى ظهرها للقديم وتطل بواجهتها على الجديد، كانت فى يوم قريب، تقع على الأطراف تفتح بابها ونوافذها على الغيطان، تتلقى نسائم الليل الرقيقة، وتسمح لنور القمر بالمكوث حتى الساعات الأولى من النهار.

سمع الشيخ أصوات الرجال خلف النافذة المفتوح نصفها الأعلى يختلط بصوت المرتل الرتيب الذى ينطلق من مذيا ع صاحب المكان. يجعله تحت يديه، ولا يغير المؤشر عن إذاعة القرآن الكريم، يتركه لرتابته حتى ينتبه، فيأخذ آخر الآيات، ويسأل الجالسين تفسير الكلمات، فيعجزون، فينبرى «أبو عاشور» للتفسير، يعود بظهره إلي الوراء، ويستند على الحائط، ينشق من أنفه، ويمسح يده على اللحية الساقطة على صدره، ويهز رأسه المعمم الشاحب ويغلق أجفانه على عينيه المكحلتين ليقول بنشوة:

- اسمع يا سيدى.

ويمتح من علمه اللدنى..

طرق الشيخ سعدون على الضلفة المغلقة، فتعرف على صوت القنصل يصيح: أيوه، وقام ليفتح له الباب بحذر.

ألقى الشيخ السلام على الرجال، وخلع نعليه ليدوس الحصير المفروش على أرض الغرفة، لمح المعلم عثمان جالساً تحت النافذة، فدس جسده الضخم بالقرب منه، سأله المعلم:

- خير؟

- آخد نفسى الأول.

- طلع لك عفريت وألا إيه؟

- يا أخى قل حمد الله بالسلامة.

ووجه حديثه إلى «أبو عاشور» المشغول بتنظيف الحجارة، وتكريسها، فى الطواقم الخشبية المصفوفة أمامه. كان وجهه يختفى خلف بخار البراد الكبير المدفوس فى الرمل الساخن لرمالة لا ينقطع وابورها عن الوشيش.

- لما تتعلم تلقى تحية الإسلام.

واستشهد الشيخ بالرجال:

- قلت السلام عليكم وألا لأ؟؟

فأكد الجميع أنه ألقى السلام قبل أن يخلع نعليه.

- قولوا للرجل الضلالى.

- ضلالى مرة واحدة، أنت ناوى ع الهجوم من الأول.

- سيبنى آخد نفسى.

- خد أنفاسك الأول.

ومد القنصل القابع أمام المعلم عثمان الغابة جهة الشيخ، بعد أن أزاحها المعلم فقبض عليها الشيخ، وراح يطقطق والجذوات الصغيرة تتقافز على الحجر، وتتناثر على الحصير.

يلاحقها القنصل بالماشة حتى لا تحرق المزيد ، فالحصير القديم امتلأ بالبقع السوداء المحروقة ، كذلك الكلسون القطنى الذى يخنق ساقيه النحيلتين ، يستند بزنده على واحدة بينما أنام الأخرى تحته ، ليوسع للطقم الخشبى والمصفاه المصهللة بالفحم المتقد .

- مساء العسل يا مولانا .

ودلق الحجر المحروق فى الصفيحة ، ورفع حجرا جديدا معمرا . حبكه فى قلب الجوزة ، وهز المصفاة أمامه بحرفيه ليزكى نارها ، ونفخ عنها التراب الخفيف ، ثم أمالها على الحجر ، وهو يسوى الجذوات القوية بأصابعه الجافة ، أراد أن يمد الغابة إلى المعلم عثمان ، غير أنه أزاحها مرة أخرى نحو الشيخ .

– عمر راس الشيخ الأول ، خلى القعدة تحلو .

وانبرى إليه (أبو عاشور) بعد أن التقط آية من المرتل الذى يتردد فى المذياع .

– قسر دى ياشيخ ، قالت : يا أيتها النمل ادخلوا مساكنكم لحسن سليمان يدهوسكم برجليه .

– يا جاهل اقرا الآية صح : « قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» .

– أنا فاهم برضك ، يعنى النملة الصغيرة ماشية فى حال سبيلها هى ورفقاتها ، قام شافت سيدنا سليمان جاى بجيشه ، فقالت لهم خلوا بالكم ابعدوا عن طريقه ليدهوسكم برجليه ، وربنا كرم سيدنا سليمان بالقدرة على الكلام للطير والحيوان وحتى النمل .

– الله .. الله ينور عليك .

صاح الرجال وهم يتطوحون إلى الوراء ، ويصفقون بأكفهم ، فانتشى ( أبو عاشور) ، ونشق مخاطه ، مسح شفته العليا الفارغة من الشارب ، وارتعشت يده الموشومة فى أكثر من موضع وهى تصب الشاى فى الكوب ، وانحنى فوق الرمالة ليمد الصينية للزبون الذى قال له جذلا :

– الله يزيدك من علمه .

نفث الشيخ الدخان من طاقتى الأنف ، وابقى بعضه ليكتمه فى رئتيه ، وسعل ، ورجع إلى الوراء ليخرج منديله المكور فى جيبه ، بصق فيه ، ثم وجه حديثه للرجال :

– قبل أى حاجة يقرا كلام ربنا صح .

ولم يرد (أبو عاشور ) إفلات الفرصة ، فوجه سؤاله إلى الشيخ :

– طب الكلام دا حصل فين ؟

– كلام إيه ؟

– لما سيدنا يوسف رموه أخواته فى البير ، وعدى عليه سواق عربية ، كان عايز ميه لأن الموتور سخن منه ، قام رمى الجردل فى البير ، كان سيدنا يوسف قاعد تحت فى الميه ، لما شاف الجردل مسك فى حبله ، السواق شد من فوق لقى الجردل وزنه زاد قوى ، قعد يشد لغاية لما لقى سيدنا يوسف عيل صغير طالع له من الميه ، قام اغمى عليه فى الحال .

– شوف الرجل الأهبل ، سواق إيه وهباب ايه ؟ هو كان فى الزمن دا عربيات .

– الشيخ بيخوض فى كلام ربنا يا اخوانا .. أمال فسر الآية الكريمة « وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون» .

يعنى إيه سيارة يا رجالة ؟

– العربية طبعا .

– قولوا لأخينا اللى حيكفر على المسا ، أنا خدمت فى نفس المنطقة فى حرب فلسطين ، وحصلى نفس اللى حصل لسواق سيدنا يوسف ، أنا كنت سواق بريمو ، فاختارونى أسوق سيارة اللوا ، وفى يوم سخنت العربية منى ، ومريت على بير ، الخالق الناطق بير سيدنا يوسف ، حاكم البلاد دى ما تشربش من ترع وبحار زى حالتنا ، كلها بتشرب من آبار ، تجيب لهم الميه من تحت الأرض ، رميت الجردل فى البير وشديته بعزم مافى ، وفى اللحظة دى افتكرت سيدنا يوسف .

– السيارة يا جاهل يعنى الناس اللى بيمشوا على رجليهم .

– والنبى يرضى مين الكلام ده ، اسيب كلام ربنا وامشى ورا الشيخ ؟

– أنت حر .. امشى ورا اللى يعجبك .

وتبسم المعلم عثمان للشيخ ، ودفعه بيده ليحضه على مواصلة الحديث ، متعته تصل مداها حينما يرى هذه المناوشة بين الرجلين ، كلما خمد لهيبها ، اعاد فتح الموضوعات التى تسبب الخلاف بينهما ، فكل منهما يدعى أنه على حق وكل منهما يريد أن يبرز قدراته فى مواجهة الرجال ، هؤلاء الذين طمست ملامح وجوههم خلف كتل الدخان الكثيفة .

– طب خد دى يا مولانا .

– نعم .

– يوم القيامة ، الناس كلها حتشاور على رجل معين ، وتقول أبونا آدم آهه ، الكل حيعرفه بعلامة مميزة ، إيه هى ؟

– الوحيد اللى مالوش سرة لأنه لم يولد من امرأة كباقى الخلق .

فهتف الرجال للشيخ :

– الله أكبر .. الله أكبر ،

فكشر (أبو عاشور) وألقى الحجر الذى ينظفه جهتهم ، وقال ساخطا :

– اصبر يا مغفل منك له .. حتشجعوا الغلط ؟

– غلط إيه يا (أبو عاشور) ماهى واضحة زى الشمس .

والتفت اليهم القنصل ، بعد أن قام ليغير ماء الجوزة .

– صبركم بالله أبويا عنده تفسير تانى .

– أبونا أدم كان له سرة .

- أزاى يا (أبو عاشور) ؟

- ربنا سبحانه وتعالى لما سواه من الطين ، وقبل ما ينفخ فيه من روحه ، ركنه شوية فى الشمس ، علشان الطينة تنشف ، قام جه ابليس اللعين وهو بيتمشى فى الجنة ، ماهو ماكانش عصى لسه ، شاف أبونا آدم متمدد قدامــه ، وهو ما يعرفوش فمد صباعه على بطنه ، يسأل بينه وبين نفسه : إيه ده ؟

فبانت السرة من يومها .

- يعنى سرتنا دى صباع إبليس ؟

- عليك نور .

وترك الشيخ انشغاله بفض الحشيشة من ورقة السوليفان ليقربها من أنف المعلم ، بعد أن عضعض عليها بأسنانه .

- الرجل بيخرف .

وسأل المعلم عثمان (أبو عاشور) :

- طب سيبنا من حكاية السرة دى ، الناس حتعرفه إزاى ؟

- قلت لى ازاى ؟ من الحتة الفاضية فى صدره.

- حتة إيه يا فضيلة الشيخ ؟

سأل الشيخ سعدون ساخرا .

- مكان الضلع اللى ربنا خلق منه أمناحوا .

- جاك كسر ضلعك ، ارمى طقم هنا ، وسيبك من الهلس .

- أهو قال هلس يا رجاله .

- يعنى انسحبت يا شيخ ؟

- يا عبيط منك له ، الرجل بيضحك عليكم علشان يطير شوية السطل من دماغكم ، وترصوا طولة الليل ، وانتوا مش داريين ، وهو يملا جيبه .. دى خطة جهنمية ماتخلش على .

- برضك نعتبرك منسحب .

- منسحب .. منسحب بس اعيش .. رص يا قنصل وقل لأبوك يبطل كلام ، عايز اتفاهم مع الرجل فى موضوع مهم .

وأشار نحو المعلم عثمان ..

هدأ الرجال ، وتداخلوا فى أحاديث جانبيه بصوت خفيض وانشغل (أبو عاشور) بعمله ، يرفع الماء البارد من (البستلة) الصاج ، ويدلقه فى البراد المدفوس فى الرمل الساخن ، وحين يلقى إليه القنصل بالطقم الفارغ ، يخرج الحجارة ، ينظفها من المعسل المحروق ، ويحافظ على الحصوة ليعيدها إلى ثقب الحجر ، ويحشوه بالمعسل اللزج من علبة البلاستيك الكبيرة ، ويصف الأطقم حتى يرتفع بناؤها ، يسحب منها القنصل الواحد بعد الآخر ، وهو يتنقل بين جماعات الرجال المنتشرين على الحصير المهترىء واتضح صوت مقرىء المذياع يردد التلاوة بإيقاع رتيب ، وكان (أبو عاشور) من وقت لآخر يقطع الصمت صائحا : وحدووه .. ويرقبه القنصل باهتمام ، لأنه يخشى أن تأخذه الجلالة فجأة ، فيتمدد بطوله مغشيا عليه خلف الرمالة ، يقوم اليه ليرش وجهه بالماء البارد ، ويدس البصلة المنزوعة القشرة فى أنفه ، فينتفض الرجل ، ويطوح بذراعيه ، والقنصل يمسك بهما ، ويضغط على ساقيه حتى لا يطيح بالآنية التى يغلى ماؤها ويختلط بخارها بدخان المخدر .

يصحو (أبوعاشور) من اغماءته مأخوذاً ، يعيد ربط شال العمامة المفكوك ، ويمسح بكمه الدموع التى سالت مع سواد الكحل على صدغيه ، ويفرك فتحتى الأنف بظاهر كفه .

حين يعتدل على (الشلتة) يجول بناظريه على الجالسين الذين إعتادوا على سقوطه المفاجىء ، فلا يحرك أحدهم ساكناً . ويصرخ فيهم بعتب : ما تصلوا ع الحبيب النبى .

– اللهم صلى عليه .

ويعود إلى الإستغراق فى عمله مشنفاً أذنيه للصوت الرتيب . همس المعلم عثمان فى أذن الشيخ سائلاً إياه :

– عملت إيه ؟

– كل خير .

كان القنصل قد تحرك إلى جلسة أخرى .

والمعلم الذى أدفأ القطعة البنية بين يديه ، راح يقطع منها قطعاً صغيرة ، ويصفها على ورقة بيضاء نظيفة واستطرد الشيخ قائلاً :

– قابلت الولد وأتفقت معاه .. كله تمام .

– وافق ؟

– يقدر مايوفقش .

– لك الدلال على الست الوالدة .

– والله ماتعرف أنا عايزه ليه ، ولما سألت قلت لها عايزينه يغنى فى فرح.

– عليك نور .

- المهم تجهيز الأوضة اللى حيدخل فيها ، والأتفاق مع العربية اللى حتزفه ، وتكلم الواد الكوافير على أساس إنه حيتعامل معه كعروسة عادية ، وبعدين شوية الحاجات اللى حتتحط فى (السبتة) لزوم عشا العريس والعروسة .

- خلصنا كل الكلام ده .
- قدها وقدود يا معلم .
- المهم السرية التامة .
- ماتنساش الواد أخرس .
- أخرس !! دا أنت اللى أخرس .. والله لأربيه .

# نهـــار العُـرس

## - ١ -

كم انحرف رأسك ياحودة ؟

امرأتان فى امرأة واحدة !! كيف تغادر فرشتك الحقيرة إلى هناك ؟ كيف أسرى بك بعد أذان الفجر ؟

كنت منتبها ليقظة أخيك حين قام فى موعده ، واردت القيام معه غير أنه أشار إليك أن أبقى – هكذا قال المعلم – إنه يوم عرسك ، فاستعد حتى أعود إليك آخر النهار .

ولم تعد واعياً لشىء فيما بعد ، لا تدرى ، كيف غسل وجهه ، ورفع أدواته ، وأغلق الباب من خلفه ، كعادته كل يوم ، لقد استسلمت للنوم اللذيذ ، فمثل هذه الساعة من اليوم ، تكون بالخارج ، أما أن تقضيها فى فراشك ، فهذا هو الجديد ، وجذبك النوم إلى بئره العميقة ، وأسلمك من حلم إلى حلم حتى رأيت نفسك هناك ، تصعد الدرج المظلم .

ووجدتها بانتظارك ، فى ثوبها الحريرى الشفيف ، وعطرها الذى يدوخ الرأس ، وشعرها القصير الهابط على الجبهة فى (قصة) مثيرة ، تفتح لك أحضانها ، وتدخلك فى ردهة تراها من الخارج ، ولم تدسها أقدامك أبداً .

لا وجود للمعلم فى المكان .

وكفك مستسلمة لكفها الناعمة اللدنة ..

فى غرفة النوم ألقت الثوب على الأرض ، قطعة فوق قطعة ، وأشارت إليك أن أصعد ، و .. وعثرت على عريك كاملاً غير منقوص بين ناموسية ، صارت هى الكون نفسه ، وحين كنت تتقلب عليها رأيت وجه فكيهة على نفس الجسد ، كان الوجهان يتبدلان ، يبدوان ويختفيان وأنت فى حيرة ، أيهما تحافظ على ثباته ؟

وأنهكك الجسد الواحد بوجهين ، فلم تصل إلى شىء ، بسبب الحيرة ، فهبطت على بطنك مجهداً لتقوم من غفوتك لاهثاً فوق وسادة منقطة بدم البراغيث ، عدلت من وضع جسدك المرهق المأخوذ بالبهجة .

ونمت على ظهرك لترقب نور الشمس الذى اقتحم ثغرات الخشب المرتفع لنافذة غرفتك المطلة على الشارع .

لم تر شمس الصباح فى هذه الغرفة أبداً ..

فهيا لتستقبل يومك الجديد ، وأحمد الله أنك لم تهدر ماءك فى حلم مجهد ، وقفت على ساقيك ، وتمطى جسدك فى كسل غير معهود ، ونثرت ماء الحنفية الصاج على وجهك ، وجففته ببقايا الفوطة الملقاة على فرشة زكى ، وأطلقت ضلفتى النافذة إلى الخارج فانعتق النور ، وتدفق فى شعاع قوى يحمل ذرات نشطة ، ابانت قبح الغرفة ، ودمامة أشيائها الفقيرة ، جعلت بقايا الجبن بين شطرى الرغيف الذى تركه زكى لإفطارك ورحت تقضم اللقيمات وأنت تدفع القفل فى الرزة الصدئة .

حجرة الأزهرى مغلقة ، لقد ذهب إلى معهده إذن .. ورأيت عايدة العمياء بصحبة نوال يرقيان السلم ، وهما ترفعان صرة الفطائر التى عادتا بها من المقابر صباحاً . هكذا نهضت اليوم عكس الحركة المعتادة ..

ماذا تفعل فكيهة فى مثل هذه الساعة من النهار ؟

هل ذهبت إلى السوق لتشترى خضارها ؟ أم تراها قابعة فى حجرتها ، تقضى النهار الطويل بانتظار عودة فكرى من عمله ؟

فلتلقى نظرة من شباكها ..

وتذكرت الحلم وجنونه ، فاهتاج بدنك مرة أخرى ..

«فات الكتير ما عاد إلا القليل ».

الليلة ستضع نهاية لهوس الرغبة ، الليلة ستتعرف على جسد امرأة مجهـــولة ، ماذا يهم ؟ إننى أثــق فى ذوق المعلم» له خبرة فى النســـاء لا ينكــرها أحد ، أنظر إلى زوجتـــه الجديدة ، هل فى البلد من هى أجمل منها ؟

صحيح أنه لن يتخير لى امرأة فى جمالها ، ولكنه على الأقل سيتخير امرأة معقولة» .

ودون قصد أو بقصد اشرأب عنقك لتنظر إلى حجرة فكيهة ، فرأيتها ترفع الجلباب الأسود عن بدنها ، وتلقى الطرحة على الكنبة «لقد عادت لتوها من السوق» .

هزت رأسها لتسقط فردة الحلق المعلقة بخصلة الشعر ، فرأتك ، أردت الإنسحاب فى حرج غير أنك رأيتها – وعلى غير العادة – تبسم إليك .

تركت عينيك تتأملانها طويلاً والبسمة لم تفارق وجهها ، بل بادلتك التحديق ، وظلت العيون فى اشتباكة ممتدة حتى تاه عنها النظر ، وصارت الرؤية غير محددة ، وضبابية ، ورفعت ذراعها نحوك : إيه يا أخينا حتقضى اليوم كدا ؟؟ .. أشارت إليك جاعلة من قبضة يدها اليسرى كوباً ، وسبابة

اليمنى ملعقة تقلبها بين فرجتها : تشرب شاى ؟

فصرخ الدم فى عروقك ، وفاجأك أنك ، وجدت كفك ترفع إلى جانب رأسك لتقول لها : شكراً .

أدارت ظهرها نحو الباب قائلة بتبرم : شكراً .. شكراً .. أنت حر .

واحترت فى وقفتك .

هل تخرج إلى الشارع ، أم تعود إليها ؟ لتؤكد حاجتك للشاى ، لماذا لم تترو فى إجابتك ؟ هذه أول دعوة صريحة منها . يالك من حمار ، اضعت الفرصة . ثقلت أقدامك ، وتردد خطوك ، وقفت على الباب الكبير تطل على الشارع ، ترصد حركته ، فى وقت لم تدركه من قبل .

ظلة التوت مغرية بالجلوس تحتها ، بعد قليل .. ربما اجتمع النسوة يعاون بعضهن البعض فى تنظيف الخضار ، وتنقية حبات الأرز من الطوب الصغير ، على أن يقمن للطبيخ بعد أذان الظهر ، وأحسست بالكف التى تربت على كتفك ، تلفت إلى الوراء ، ورأيت بسمتها التى لم تفارق وجهها ، كانت تريد الخروج إلى الشارع بكيس الخضار ، وأردت أنت أن تزنق الجسد الفاره فى الضلفة نصف المفتوحة ، وأشرت عليها بالمرور من أمامك ، ولكنها أبت ، وأشارت إليك لتهبط من العتبة ، فالمساحة غير كافية لمروقها .

اشرت إليها بأنك رجعت فى كلامك ، وتريد أن تشرب الشاى من يدها ، وردت على إشارتك فى دلال : فرصة ثانية .

سألتها بالإشارة : متى تجودين بالفرصة الثانية ؟

واشارت إليك وهى تعبر الشارع : فى المشمش .

وراغت منك لتجلس تحت الظلة ، وغادرت فتحة الباب متحسراً .

تقول لنفسك «وماذا يهمنى من هذه المرأة ؟ ربما فاق جمال عروستى جمالها ، أو على الأقل ربما شابهتها . فى هذه الحالة سأبوس يد المعلم ، وأجعل خدى مداساً له ، على مدى الأيام».

وانطلقت إلى شارع السوق ..

درت دورة كاملة حول سور البيت الكبير ، تستظل بشجره الأخضر الريان المائل نحو الشارع حتى تخرج من جهة بابه القبلى لتستقبل من هناك شارعاً فرعياً ضيقاً ينفتح على شارع السوق المزدحم بالخلق .

سرت بين المحلات المفتوحة الأبواب ..

البرادعى يعلق أدواته بالخارج بينما هو لا يفارق مكانه فى ظلمه الدكان، بين يديه حبات المسبحة التسعة والتسعين ، وأمامه قاعدة خشبية ترفع دفتى المصحف الذهبى الغلاف ، يميل إلى الأمام وإلى الوراء يرتل الآيات بصوت خفيض ، ويقوم ليرفع الأذان من مئذنة جامع السوق ، يكتفى بالظهر والعصر والمغرب ، ويغادر إلى داره حيث يترك أذان العشاء والفجر لأمين الأعمى .

رفع البرادعى رأسه قليلاً ، ولوحت يده البيضاء بالمسبحة وهش فى وجهك ببسمة طيبة ودود ، ورددت عليها بمثلها وهتفت إليه بصوت عال : آب .. آب .

وأشرت إلى السماء ، فرفع كفيه أمام وجهه ، ودعا لك .

ومررت على الإسكافى ، وتاجر الحب ، والحصرى .

ثم وقفت تتأمل فاروق الحداد ويده العفية التى ترفع المرزبة عالياً لتسقط على وهج الحديدة الملتهبة ، فتدقها بقوة لتجعل منها رأس فأس

تقلب الأرض ، أو منجلة تحصد الزرع ، أو (شاكوش) يحفر حجر الطاحونة .

حين رآك توقف عن العمل ، بعد أن دس طرف الحديد فى الفحم المتقد أمام فوهة الكير ، وأشار للصبى ليشد الحبل المربوط ببكرة فى سقف الدكان فيرفع الرئة الضخمة للكير حيث يدفع الهواء المخنوق أمام الجذوات ، تعلق الولد بالحلقة ، واستغرقه الجذب بينما وقف فاروق ليشير إليك بعلامات التهنئة ، وأنه سوف ينهى عمله قبل المغرب فيذهب إلى داره ، يرفع السواد عن وجهه ويديه ، ويرتدى جلباب العيد ليتقدم المهنئين بالعرس ، وأشار بذراعيه إلى الدكاكين على الجهتين ، ورفعت يدك إلى رأسك لتشكره .

وتغادر دكانه لتقع عينك على فارس الواقف بسرواله الكبير الواسع ، وصداره المضموم بأزرار كثيرة على صدره .

كان يميل بجسده على منشار طويل ، دخل فى منتصف دائرة جذع الشجرة الطرى ، ثبت فارس قدميه الحافيتين فى لحاء الجذع الممدد بين رافعتين خشبيتين على الجهتين ، مسح العرق عن جبهته ، وأشار إليك مبتهجاً ، رفع عمامته عن رأسه ، وقال إنه سيسهر مع الغوازى حتى الصباح ، وقبل أصابعه المضمومة ، وأشار إليك بأنه سمع أن المعلم قد اتفق مع أجمل راقصتين فى البر كله ، ثم أشار إليك بأنه سيعزمك على كوز بوظة يدفع الشجاعة إلى قلبك فتدخل على عروسك دون جزع .

واشرت إليه بعدم احتياجك للبوظة ، فالشجاعة متوفرة والحمد لله ، وأشرت إليه بأنك تتشرف بحضوره العرس هو وأهل الشارع جميعاً .

عاد فارس ليتفل في كفيه ، وانحنى على منشاره العصى ليقطع فى قلب الجذع الحى .

ومررت على تاجر المبيدات ، ومقهى التهامى ، ومعمل مكاوى للمياه الغازية ، وتوقفت أمام دكان (أبو نعمة) الخياط ، وجدته هناك وراء البنك المنخفض يقص قطعة القماش المفرودة أمامه ، وصبيانه من حوله ، الكبير منهم يميل على الرأس الأسود لماكينة (سنجر) ، والآخرون توزعوا فى المحل ، واحد علق القيطان فى أصبع القدم وجعل يثبته بإبرة رفيعة حول عنق الجلباب الصوفى ، والآخر يرقب الجميع بانتظار أوامرهم فينقل المقص لهذا ، أو يرفع المسطرة لذاك ، أو بانتظار المشاوير الخارجية فيتباع الزراير والقيطان أو يذهب إلى محل العراوى ليمكن جوانبها .

ألقيت السلام بحركة من يدك ، وترددت بين لسانك حروف مبتورة غير مكتملة : آر .. آر .

فانتبه إليك (أبو نعمة) ورفع رأسه العريض فتدفق الدم الأحمر فى خديه المكتزين ، وشاعت البهجة فى أعطافه .

– أهلا بالعريس .

وأشار إليك لتجلس على الكرسى الفارغ ، وأشرت إليه بأنك مشغول ، ووراءك مائة مشوار ، فهل انهيت جلباب العرس ؟ أشار (أبو نعمة) إلى صبيه ليأتى بالجلباب الأبيض المطوى فى الدولاب ، وأتى به الولد مرفوعاً بين عضدية بحرص شديد . وسألك : عايز تتأكد من المقاس ؟

حدفت يدك فى الهواء متبرماً مشيراً إليه بأنك جربت المقاس أكثر

من مرة ، وقبلت يدك ، وقبضت على يد وهمية فى الهواء لتقول له : تسلم يدك .

أشار إليك بأنه لن يعود إلى بيته ، سيظل يعمل حتى يأتى موعد العرس فيصحب صبيانه إلى هناك ، حيث أتفق مع باقى أصدقاء البوظة بقضاء سهرة رائعة على شرفه .

دفست رأسك فى ياقة جلبابك المرفوعة على القفا واشرت إليه وأنت تغادر دكانه : تشكر .

ثم تذكرت شيئاً فعدت إليه لتسأله عن الحساب ، فضرب كفاً بكف ، وقال لك : البركة فى المعلم .. كله خالص .

واشار بأصبعه على الشارب ، وفرد كفه البضة على كرشه .

عدت بظهرك رافعاً رأسك إلى سقف الدكان : آب .. آب .. تدعو الله بأن يزيد المعلم من نعيمه ..

ومررت على الفخرانى ، ومقهى شكوكو ، والبقال .. طرقت أنفك رائحة البخور تتصاعد مع الدخان القادم من صالون العضل ، رأيته من خلف زجاج الباب ، بوجهه الضخم الذى يرفع شعراً رمادياً هائشاً وشارباً كثيفاً تتوزع شعيراته الداكنة على الصدغين وتصفر فى خيط رفيع أسفل الأنف .

وقف ببنيته المهولة وجلبابه الذى لا شىء تحته ، صيفاً أو شتاء ، يمد كرشه أمامه فيحجزه عن الزبون الذى مال برأسه أمامه ، واستسلم للماكينة التى تنزع شعر القفا .

فتحت إحدى الضلفتين ، وتكثفت الرائحة العطرة فى أنفك ، ولمحت عود

البخور مغروساً فى شق خشب الطاولة التى ترفع أدوات الحلاقة .

استدار إليك العضل : يا مرحب بعريس الغفلة .

ولم تدرك معنى الكلمات ، وإنما استسلمت لإشارته :

أجلس حتى أنهى ما بيدى .

ورفع الزبون رأسه لبعض الوقت ليتنفس الهواء حتى أعاده العضل إلى وضعه السابق ، ملأ رأسه الحليق بأصابع يده العريضة ، ودفعه ليميل على الصدر ، ودنا من القفا لينفخ الشعيرات الساقطة على قذاله .

رفع العضل الماكينة فى يده ، وأعاد تشمير كميه الواسعين واشار إليك بحركة مبتذلة ، وفهمت منها قوله «أخيراً ستدخل دنيا .. وتهيص هذه الليلة مع عروس يحسدك عليها شباب البلد جميعاً ».

اشرت إليه لينهى عمله حتى يفرغ لك ، ويحلق لك حلاقة العرس ، وهى بالتأكيد ستأخذ منه وقتاً طويلاً ، لأنك تريد حلق الشعر ، ورفع شعيرات الوجه ، وضبط الحاجبين ، ثم حلق الذقن ، وقص الأظافر ، وما شابه .

مد العضل يده ليرفع جلبابك ، ويقول لك بجرأة اعتادها الناس فيه : وإن شاء الله نحلق عانتك فوق البيعة .

ضحك الزبون للحركة البذيئة ، ولكنك صرخت فيه : أرب .. أرب .. ركنت جلبابك على الكرسى ، وأطبقت على عنقه تريد فصل رأسه عن جسده ، وافتعل الصراخ رافعاً يديه إلى أعلى : حموت يا هوووه .. حوده بيقتلنى .

وهمدت يداك إلى جانبيك من الجهد ، ولكنه لم يتركك فى حالك ، اتجه ليقبض بكلتا يديه على رأسك ، وقربه من المرآة : أعمل فيك أيه ؟ ادوره الناحية الثانية ؟ علشان تنام مع عروستك بمؤخرتك ؟

تألم عنقك بالفعل فدفعته فى كرشه غير أن يديك ارتدتا إليك ، وكأنما

صدمتا فى جدار مسلح . نفخت فيهما متأففاً ، وقال لك العضل متشفياً : يا خرع .. والنبى هتكسفنا الليلة .

وجر الزبون عن الكرسى ليرفعك إليه : اتفضل .. إحنا نعمل اللى علينا والباقى على ربنا .

ها أنت ترى وجهك الأسمر الناحل فى المرآة الصافية العريضة . وجه مشدود ومجهد ، غارت عيناه فى الجمجمة ، ونتأت وجنتاه ، وانخفض صدغاه كحفرتين فارغتين .

لف العضل الفوطة حول عنقك الهزيل ، وأشرت إليه بحلق الذقن ، ونتف الزغب المتناثر حول العينين والحاجبين وعلى الأذنين .

رفع العضل أصبعه إلى عينيه ، وقال : أنت تأمر .

وأشار إليك : لو عايزنى اجيلك لحد الدار أحميك ، وأليفك مش حتأخر .

فلكزته بكوعك فى كرشه المشدود الجلد .

حين أنتهيت ، دفعت له أجره ، فتأبى .

أصررت على الدفع ، وهو أصر على الرفض .

وأنهى الحديث بالإشارة إليك : أنا لى تصرف تانى مع المعلم ..

لسه قدامنا حنة ، وتخطيرة ، وسهرة طويلة ..

هل تعود إلى غرفتك .. النهار لم يزل ممتداً ..

وأنت تقاوم الشوق للتعرف على المكان الجديد الذى ستنتقل إليه هذا المساء ، أتغلق عليك بابك منتظراً ؟

إن نفسك ترميك إلى اصطباحة حلوة على مقهى متولى .

ولكن هل تضمن الزبون ؟

ربما نظرة هناك تحسم الأمر ، ثم إنك تود لو تصل إلى محل الجزارة

للتــأكد من استـعدادات العرس ، وتخشى المعلم ، فـيفض الموضـوع مـرة واحـدة ، وتعـود من حـيث اتيت ، ربما استطعت الإشـارة لزكى من بعـيد ، ولكن هذا الملعون سيكشر فى وجـهك ويصيح : أنت كـثير الشك ، وصدعت دماغى بإلحاحك .

لن يرتاح لك بال حتى تتيقن بأن الأمور تسير كما تريدها لنفسك .

على مـقـهى مـتـولى هاج الجـمـيـع لمرآك ، والتـفـوا حـولك يصـفـقـون ، ويتراقصون فى دائرة . هؤلاء هم سائقو سيارات الأجرة وصبيانهم الذين ينادون على الزبون ، وانضم إليـهم راكبو الموتوسيكلات بلبـاسـهم الجلدى وخوذهم الحديدية ونظاراتهم السوداء الكبيرة .

شدوا عزيزة وادخلوها وسط الحلقة ، وحزمـهـا أحدهـم بشـال يلفه حـول عنقـه ، ورفع آخـر صـينيـة من تلك التى ترفـع الطلبـات للزبون ونقـر عليـهـا بأصابعه القوية .

واستجابت الخنفا للإيقـاع ، وهزت بدنها ، رافعة ذراعيها على رأسها ، ودفعوك عنوة لتراقصها ، فاستجبت خجلا ووقف متولى على النصبة يرقب الرقص مبتهجاً .

ولمحت النسناس فى ركن المقـهى ، يضـحك بقـوة ، فـيـأخـذه السـعـال ، فيستجيب له بدنه النحيل ، ويحمر وجـهه ، ويميل على نشارة الأرض باصقاً من حين لآخر ، ويدوس ببلغته مكان البصق .

حين همـدت عـزيزة ، انسـحـبت من الحلقـة ، وخـرجت وراءها تلـهث من الجهد ، وتفرق الرجال على الكراسى يتصايحون بصوت عال .

لا تدرى مقاصده ، يتغامزون نحوك ، ويضربون الكف بالكف ، ولا تدرك ما يعنون ، تجاهلتـهم ، واتخذت طريقك إلى النسناس ، قـبعت إلى جواره ،

فعرف طلبك ، ربت على ظهرك بطيبة ، وأشار إلى متولى ليطلب لك الشاى ، اكملت أنت إشارته بأن جعلت الإبهام فى منتصف السبابة ، ففهم متولى أنك تريد نصف كوب ، ونصف ملعقة سكر .

لما أحضر لك الطلب ، أخرج النسناس ورقة السوليفان الحمراء ، وقضم منها قطعة صغيرة . سواها على ظهر الملعقة ، وقلب بها الشاى ، وربت على ظهرك مرة أخرى : بالهنا والشفا .. إن شاء الله ترفع راسنا ، وتبقى برى فكس .

ولكنك أشرت إليه بأن؛ لا تريدها الآن .

قضم قطعة أخرى ، ولفها فى ورقة صغيرة ، اشار إليك : ودى هدية منى .. تحطها تحت لسانك قبل ما تطلع من أوضتك .. حتخليك حديد .. وكله على الله .

رفعت يدك إلى رأسك لتشكره ، وأحتسيت الشاى على مهل ، وأنت تتأمل من ظلمة المقهى الشارع الكبير الضاج بالسيارات الغريبة القادمة من الشمال والجنوب .

ثم ها أنت تقطع الشارع ، جلباب عرسك تحت إبطك ، ورأسك الحليق لا يدرأ عنك حدة الشمس اللاهبة ، يشم أنفك رائحة البودرة التى نثرها العضل على قفاك ، ومكان الزغب الذى نزعه بالفتلة ، فتشعر أنك ترفع رأساً خفيفاً لا ثقل له ، رفعت - كعادتك - ياقة الجلباب إلى أعلى ، ودفست الرأس النحيل بن كتفيك ، وسرت لا ترفع عينيك عن الأرض ، تتجاهل الناس ، وهم لا يريدون تجاهلك . أنهم يهجمون ، ويجذبون ، ويريدون الوقوف معك ، لا لشىء إلا للهو ، والمزاح الفارغ .

إخيراً وقفت أمام نافذة المحل حيث يقف الزبون للحصول على

طلبــه ، اختفيت بين بقـايا الذبيحة المعلقة ، وأشرت إلى زكى ، فلم ينتبه إليك ، فوجئت بعمـور يقبل نحوك ، ويشير إليك : أدخل .. المعلم جوه ومعاه الشيخ .

لكنك نزعت يدك منه ، فشـدك إلى الداخـل غـصبـاً ، ودفـعك لتـهـبط الدرجتين ، أشـار إليك الشيخ : تـعال . تقدمت مـحرجاً ومتردداً ، أشار إليك المعلم : أنت فى أجازة . وبادلته الإشارة بأنك تعلم ، ولكنك أحترت فى يومك الطويل .

اشـار إليك الشـيخ : ليست هذه حـجـــة ، بل إنك فى لهفـة للتـأكـد من الوعد .

ومال على أذن المعلم ليسر إليه شيئاً ، أعاد المعلم جسده إلى الخلف ، وفتح الدرج ليخـرج مفتاحـاً كبيراً ثم نده على عمور ليقول له : خده وريه الأوضة ، وعدى بيه على محل الجزم يختار له جزمة جديدة .

وأشار إلى حودة باسماً : إن شالله تتنتف على راسك ، وكركع الشيخ ، وقال : تنتفها عروسته إن شاء الله .

ســرت بصـحبــة عـمـور فى شـارع الزراعـيـة المزدحم تتـفـادى تحـية أصـحـاب المحـلات ، وتغض البصـر عن المعارف ، فـلا يعطلك أحـدهم عن مشوارك .

وعمور يتقدمك بهمة حتى انعطف جهة محل الأحذية .

وقال للرجل : فين طلب المعلم ؟

أنحنى الرجل بظهره خلف البنك : جاهز .

رفع علبة من الورق المقوى ، وأخرج منها حذاء بنياً واشـار إليك : دى مقاسك بالضبط . وإلا نتأكد أحسن ؟

اخرجت قدمك من الشبشب الجلدى القديم ، ووضعتها فى جوف النعل ، فانحشرت بصعوبة ، دققت الأرض بقوة ، فارتاحت القدم بداخله ، أشرت للرجل بأنها مضبوطة ، فقال لك بالإشارة: ألف مبروك .

وأكرمك الرجل بكيس كبير ، أدخلت فيه الجلباب وعلبة النعل معاً ، فصار حملك سهلاً ، تمسك به يدك بحرص ، وعدت للدخول فى زحام الناس حتى خرجت إلى الشارع الفرعى لتستقبل شارعاً هادئاً ، لا تقطعه غير سيارة أو سيارتان على أوقات متباعدة ، ثم قطعته مرة أخرى إلى شارع يأخذك إلى خضرة الحقول الممتدة .

هذا هو طريقك اليومى إلى بيت المعلم الذى حرمت منه ، دون أن تعرف سبباً لذلك ، التقط أنفك رائحة سباخ المعلف مختلطاً بأنفاس الماشية ، ورفعت رأسك إلى أعلى لتطالع وجهها الجميل يطل من الشرفة .

كانت تعصر قطع الغسيل ، وتنشرها على الحبال ، تجاهلت نظرتك ، كما تجاهلت تحيتك ، وحين كررت المحاولة ، لم تلتفت إليك أبداً ، فصحت بها : آب .. آب ..

وهززت يدك إلى جانب رأسك .

ضاقت بصياحك فبصقت على الأرض بغضب ، ثم رفعت كفها إلى عنقها المضىء ، وحزت به مرات عدة ، بإشارة تفهم منها أنها ستذبحك .

«هى لا تريد التحية إذن ، ولا تريد أن الفت إليها نظر الناس وهى فى الشرفة» ،جره عمور ليدخل به من المعلف العريض ، ثم رقى أمامه سلماً ضيقاً استقبل غرفة وحيدة فوق السطح لم تزل رائحة الجير تفوح منها نفاذة وقوية .

أشار إليه عمور : ابسط يا عم .. أوضه بفرشتها من مجاميعه . وفتح بابها ليطالع سريراً بأعمدة سوداء عالية ، عليه فرش جديد ، ودولاب لخشبه لمعة برقت حين أضاء نور المصباح المعلق فى السقف ، وكنبه عريضة عليها قطع من الكليم القديم ، وحصير جديد مفرود وسط الغرفة ، وسحب عمور من تحت السرير كراتين بها أدوات الطعام ، حلل وأطياق ، ووابور بريموس ، وأكواب شاى ، وفنجانين للقهوة .

أشار إليه عمور : المعلم رجل بركة ، استغنى عن فرش أمه وجدده ، وقال قدامى - وأشار إلى عينيه - مش خسارة فيه .

وعدت بظهرك ، لا تدرى ، هل تسعد أم تحزن ؟ «أكنت تنتظر أكثر من هذا ؟ أحمد الله ، إنك تبدأ من لا شىء ، لم توفر مليماً فى حياتك ، وكتر خير الرجل ، لم يطلب منك شيئاً ، كما لم يلمح بأنه سيخصم شيئاً من راتبك .

فلتكن بداية مع عروسك الجديدة ، وبجهدك ، وعرقك ، ضع القرش على القرش وحسن أوضاعك ، والعمر أمامك مديد ، يكفى أنك ستعيش حياتك الخاصة مع زوجة ، وتفارق حياة أخيك ، وتبعد عن سيطرته .

هنا ستكون رب البيت .

حقاً .. لم تكن الغرفة على المستوى المأمول ، ولكن ، لا بأس ، سأرضى بالقليل ، وسأجعلها بداية لحياة جديدة» .

وعاد ليهبط السلم خلف عمور المتعجل .

وأشار إليه فى الطريق ضاماً أصابع يده إلى فمه ، وقبلها : مفيش أحسن من كدا .

هـــززت رأسك باسـتـسـلام ، ودفـعـتـه من ظهـره ليـســيـر فى شـارع الزراعـيــة المزدحم ، أمــا أنت فـآثرت العـودة إلى حـيك من هذا الشـارع الهادئ .

تتساءل والقلق ينهش فؤادك «لماذا كانت على غير عادتها ، لقد بصقت فى وجهى ، وأشارت بعلامة الذبح ؟ هل أغضبتها فى شىء ؟ .

ودرت برأسك إلى الخلف رفعت وجهك فوقع بصرك على الغسيل ، وكانت قد اختفت خلف باب الشرفة المغلقة .

## - ٢ -

ايقظه الطرق الشديد على الباب ، غادر الكائنات التى كان يلهو معها ، ورفع جفنيه ليطالع صور سعاد حسنى وحسن يوسف وشكرى سرحان وهند رستم ، وصور العديد من الممثلين والممثلات الأجانب على رأسهم مارلين موترو وصوفيا لورين وكارى جرانت جميعهم فى أردية البحر التى تكشف أكثر مما تخفى ، صور ملونة يضيئها النور الشاحب الساقط من زجاج النافذة البحرية .

سرعان ما أنمحت وجوه النوم ، وتأكدت الوجوه التى أحبها ولا يعرف معظم أصحابها ، جمعها من (الكواكب) و (آخر ساعة) عشوائياً .

إنه ينسى أحلامه بسرعة فائقة .

لا تبقى غير الكوابيس التى تأخذ بخناقه ، وتجبره على الاستيقاظ للإنفلات من القبضة القاسية التى تودى به ، يظل لفترة مشلولاً غير قادر على الحركة ، وينعقد لسانه فى سقف الفم ، فيعجز عن الصراخ ، أو الإستغاثة أو طلب النجدة .

ومن ينقذه فى هذا البيت الساكن ؟

الأم غادرت إلى عملها ، وهو محكوم عليه بالوحدة .

لحظات المتعة تنقد فى الأعراس ، بين الناس ، حين يطلق عقيرته بـ (ودع هواك وانساه) و (حبيبى وعنيه) و (أنا قلبى إليك ميال) فى مايك يضاعف صوته عشرات المرات ، عبر سماعات .

كبيرة تتوزع فى أركان الشادر .

وتجدد الطرق ..

هذه المرة كان على ضلفة النافذة ..

وسمع صوتا مستنكرا عدم الاستجابة «لو قتيل كان صحى» .

– أيوه .

– يا أخينا النهار خلص .

– مين ؟

– أنا عمور .

– عمور مين ؟

– افتح .. وبعدين أقول لك .

قام يلملم أطراف البيچامة المفتوحة الأزرار ، ويمشط شعره الناعم بأصبع يده ، ثم دلك وجهه بكفيه ، وتثاءب بكسل ، بعد أن مط جسده إلى اليمين وإلى الشمال ، بحث عن الشبشب إلى جوار السرير ، وضع قدميه بالخطأ .

وتجدد الطرق على الباب ...

– اصبر .

– الله يطولك يا روح .

بدل الشبشب فى القدمين فارتاحت القدمان ، أراد أن يخرج ريحا ، ولكنه تراجع حتى لا يسمعه من بالخارج ، فتح الباب الكبير فضرب الضوء الأصفر عينيه ، فظللهما بكفه .

– نعم .. مين حضرتك ؟

– حضرتى عمور تبع المعلم عثمان .

أخذه بنظرة شاملة بعد ما تشبعت العينان بنور العصرية الهادئ ، راعه الدم المتناثر على الجلباب الأبيض القذر ، والسكاكين المغروسة فى حزام الوسط ، ورائحة اللحم المتعفن التى تسربت مع نسمة العصارى .

– ابعد شوية .

– ابعد أروح فين ؟؟ أنا جاى أبلغك كلمتين وماشى لحال سبيلى . وتلقى منه الكلمتين ، وهو يدفع أصبعيه إلى فتحتى الأنف ، وزاغ ببصره بعيدا عن سحنة الرجل الساخرة ، وتعلقت عيناه بالنور الأصفر الخفيف المعلق على واجهات الدور المقابلة .

– مش قوى كدا ..

– خش فى الموضوع لاسيبك وادخل .

– المعلم عثمان بيقولك كله جاهز عند كوافير (لولو) .

– طيب .. خلاص .

– العريس حيجى ياخد جنابك من هناك .. والهلمة كلها حتكون هناك .. وأوعاك الموضوع ينكشف .

– علم يا سيدى .

– سيبناك بعافية يا أبلة .. يوه .. يا أستاذ .

– جاتك داهية تاخدك .

ودفع الباب بعنف فى وجهه .

جاءته قهقهات الرجل عبر الشراعة المضيئة ، ولم يهدأ حتى توارى الظل البغيض عن الزجاج .

فى هذه اللحظة استطاع أن يريح بطنه من الغازات دون حذر ، ولم يمنعه هذا من دخول الحمام ليقف أمام الحوض يتأمل وجهه فى المرآة ، ويقلب بأصابعه المرهفة فى جوانبه .

غرف الماء بكفيه ، ونثره على وجهه ، ومرر الأصبعين فى فتحتى الأذنين، رفع شفتيه ليطالع أسنانه البيضاء اللامعة ، ضغط على اللثة العليا ، واللثة السفلى ، وحقن من الماء ليترغرغ ، ومرر الفرشاة من أعلى إلى أسفل ، وبالعكس ، ودفق الماء فى الحوض ، ثم عاد إلى الرغرغة ، رفع المشط بيده ، ومرره على الشعر لينيمه على جنب ، جعله إلى الوراء مرة ، وعلى اليمين مرة ، وإلى أسفل مرة أخرى ، ثم تركه على الشمال كما اعتاد ، انزل سروال البيچامة ، والسليب ، وعلقهما على الشماعة ، واقعى فوق الفتحة ليخلى أحشاءه من فضلات تتقلب بألم ، غسل نفسه جيدا ، وجفف أسفله بمنديل ، وأكمل خلع ملابسه ليستقبل ماء الدش البارد ، دعك الصابونة بالليفة ، ومررها تحت إبطيه وبين فخذيه ، ثم بين فلقتيه ، ودعك حول الأذنين والقفا بحذر حتى لا يبلل الشعر فيتمكن من الخروج بعد وقت قصير ، ومد يده إلى الحجر الأسود لينظف به كعبيه ، ومرر الصابونة المعطرة بين أصابع القدمين ، واطلق الماء بغزارة فوق جسده الأبيض الخالى من الشعر ، سحب البشكير ليجفف بأطرافه انحاء الجسد ، لفه حول وسطه ، واعاد تأمل وجهه فى المرآة ، فشعر بالراحة والنشاط .

فى الردهة ، وجد الصينية التى تتركها أمه لوجبته اليومية ، رفع الفوطة البيضاء وغمس لقمة طرية من عسل النحل ولقمة أخرى من الجبن ، وأخذ زيتونة سوداء بين أصبعيه وراح يقضم لحمها بروية .

هكذا تتركه أمه وحيدا بعد أن تنتهى من عمل البيت ترفع براميلها إلى البوظة لتعد شرابها لسهرة الليلة .

اللقاء بينهما عابر . عودته المتأخرة من الأعراس ، وحين يعن له قضاء بعض الوقت بين زبائنها ، ذلك فى الأيام الفارغة من العمل بالنسبة له .

شهر فى العام هو الذى يقرب بينهما ، ويوفر الوقت الطويل للإقامة معا فى البيت ، رمضان ، حيث لابوظة ، ولا أعراس .

تأخذه في حضنها ، ويتمدد هو بطوله واضعا رأسه على فخذها تعبث فى شعره الناعم ، وتقص له الحكايات عن أبيه وجدته ، وتسرح فى أحلامها، وما تتمناه له فى قابل أيامها .

وتنحنى عليه من وقت لآخر لتقبل جبهته ، فيخطف هو يدها ويقبلها بحرارة . هذه اليد التى يشعر بها وهو مستغرق فى نومه تتحسس وجهه بلهفة ، تمسح عنه العرق ، وتسوى الشعر الساقط على الجبهة .

وبين اليقظة والنوم يشعر بالنفس الذى يدنو منه ليقبل جفونه المغلقة على صور رائعة تضج بألوان صارخة ، يسقط عليها ضوء قوى من مصدر خفى لتلعلع حبات الترتر على فساتين الغوازى ، وتشرق على قطرات العرق فوق اللحم المكشوف .

أجسام حية تنتفض على خشبة مرتفعة مستجيبة لإيقاعات مجنونة لفرقة تذوب وجوه أعضائها فى غلالة من دخان الحشيش والغبار الذى تثيره أقدام المدعوين الذين استجابوا للإيقاع فراحوا يتمايلون ويهتزون ويلقون (النقطة) تحت أقدام الراقصة .

اقترب من المرآة ، مرآة حجرته الكبيرة الصافية ، بعد أن اضاء لمبة السقف ، اعاد تقليب الوجه ، وتطلع إلى الزغب الخفيف على الأذنين وعلى الخدين ، وغاظه نمو مثل هذه الشعيرات .

إنه لا يطيق أن يرى شعرة على بدنه ، وهو فى صراع دائم مع كل شعرة تطل برأسها من مسام جلده ، يتولاها بالسكر والليمون ، ويداوم ملاحقة البقع المتناثرة على الصدر ، وعلى الساقين والعضدين .

لمح سعاد حسنى تبادل صوفيا الابتسام فى شقاوة عبر المرآة ، فتلفت وراءه ليرى الأصل . كم تمنى أن يكون ممثلا . قام بأدوار محدودة فى حفلات المدارس ، ادوار سخيفة لا تبرز طاقته الحقيقية ، الحفلات كانت مرتبطة بالمناسبات الوطنية . يحفظونه كلاما ، لا معنى له ، كره المدرسة ، كما كره علومها ، وحفلاتها الرسمية الكئيبة ، ومدرسيها الذين يدعون الوقار ويحملون على كاهلهم عبء تأديب البشر . إنهم يسيرون فى الشوارع وبين أسوار المدارس كالكهنة ، يرفعون عصيهم تحت آباطهم ، يلسعون بها الجلود بسبب وبغير سبب .

إنه لن ينسى هذا المدرس ، أظنه كان مدرس اللغة العربية أو الدين ، أو كلاهما معا ، لقد وضعه على الكرسى ، ومدد ساقيه المربوطتين بالفلقة بعد أن استدعى الفراش ليمسك برأسه من جهة ، ويكبش ساقيه من جهة أخرى ، وهات يا ضرب ... لماذا ؟ وما الذنب الذى ارتكبه ؟ سأله الزملاء ، ولم يجب . كان يكتفى بالصياح : هو عارف السبب .

ولا يدرى دوافعه حتى هذه اللحظة ، كل ما فى الأمر أنه رآه مع زميل تحت السلم منعزلين عن لهو التلاميذ فى الفسحة الطويلة المملة ، كانا يعيدان اكتشاف أعضائهما الصغيرة ، نام الولد على ظهره بينما رفع

حمادة مريلته إلى أعلى ، وسحب سرواله ، ومال بوجهه يتأمل (بلبله) . هل يشبه ما يمتلكه أم أنه مختلف ؟

ووجد هوى فى نفسه لأن يلعقه بلسانه ، وإذا باليد الغليظة ترفعه من قفاه إلى أعلى ، وتلقى به على البلاط ، ثم يجرجره إلى غرفة المدرسين ، وكان الولد قد قام من نومته مسرعا ، كان يهرول وهو يجمع سرواله الساقط بين ساقيه .

هبد الأستاذ حمادة على الأرض ، وصاح فى وجهه : انتظر حتى تنتهى الفسحة ليكون عقابك أمام الزملاء جميعا ..

لم يخسر شيئا بتركه المدرسة ، خرج إلى الحياة الطليقة . يكفى أنها علمته فك الحروف ، وكتابة الكلمات ، مما اتاح له الفرصة لاقتناء المجلات التى تنقل له أخبار النجوم وتمكنه من كتابة الرسائل على العناوين المنشورة للجمهور .

وكانت سعاد أول من استجاب ..

كتبت له :

«أستاذ حمادة ..

إننى أحبك كما تحبنى تماما ، وارجو أن أراك قريبا ، بين استديوهات التصوير لتحقق رغبتك فى أن تكون نجما مشهورا ..

وليس هذا مستحيلا ، كما تظن ، وإنما هو أمر سهل لو كنت موهوبا حقا» .

ورفضت أمه رحيله عنها ، وعن البلد .

«هل تتركنى وحيدة ؟ وأنت ننى عينى من جوه ..»

«ها قد جاءت الفرصة لأبرز موهبتى ، فلتكفى تجربة أولى ، دور امرأة ؟ هذا صحيح . ما المانع ؟

كل الممثلين الكبار قاموا بمثل هذه الأدوار حتى الذين لاحظ لهم من الجمال أو الوسامة . على الكسار مثلا ، فعلها ، اسماعيل ياسين ، فعلها ، ما بالك وأنا امتلك قدرا من الجمال ، مع بعض المكياچ الذى سيضيفه منعم سأكون عروسا بحق ، ولن يكشف أحد من البلد شخصيتى الأصلية . اتمنى أن يكون المعلم والشيخ قد حفظا السر بما يكفى لإجادة الدور» .

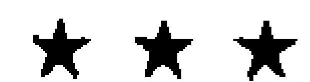
نضا كل ملابسه ، الخارجية ، والداخلية ، وتحرك فى الحجرة عاريا ليخرج حقيبته من الدولاب ، فتحها ، وسحب منها ملابس نسائية شفافة .

ارتدى الكومبليزون والكلوت ذوى الألوان الحمراء ، واحتفظ بالسوتيان والشراب الفيليه فى لفة سيأخذها معه ، وعلق السلسلة الذهبية فى عنقه ، واكمل ارتداء ملابسه الرجالى ، القميص والبنطلون .

«لا داعى لإضافة أى شئ آخر .. منعم بالتأكيد عنده أدوات مكياچ كاملة» .

مال بجذعه على الضلفة المفتوحة ، وسحب منها حذاء حريمى له كعب عالى ، ادخله فى كيس وأضاف عليه لفة السوتيان والشراب .

خرج إلى الردهة ، وارتوى من القلة المعلق بحلقها غصن الريحان . بعدها خرج إلى الشارع ، وكان الظل قد تمكن من الجدران ، فسيطر عليها جميعا ، ولم يبق للشمس غير نتف من الضوء تبرز على حطب الأسطح وأطراف الصوامع وأبراج الحمام .



هاله الزحام عند محل منعم ، حين دنا منه ، هجم الشبان عليه ، ورفعوه على الأكتاف ليهتفوا باسمه «حمادة .. حمادة» ، كان يتملص منهم ، ويدفعهم بساقيه غاضبا «نزلونى» ، ولكنهم أصروا على حمله حتى أنزلوه على طوار المحل المرتفع ، وخرج إليه منعم ليهدئ من روعه ، وفى حدة انفعاله سب الناس جميعا ، وعلى رأسهم المعلم والشيخ .

قال له منعم : أنت فاكر إيه ؟؟ البلد كلها عارفة ما عدا واحد بس .

– وليه دا كله ؟

– مزاج المعلم .

– أنا منسحب من اللعبة .

– عيب .. أنت واخد عربون .

– طظ .. على الجزمة القديمة .

وأراد الهبوط عن الطوار ، فأمسكوا به من كل جانب ، ورفعوه مرة أخرى ، وقالوا فى نفس واحد : لازم تكمل للآخر .

– وأنتم دخلكوا إيه ؟

– عايزين نتفرج .

– طب حلوا عن سمايا دلوقت لغاية ما منعم يخلص شغله . وانطلقت الحناجر من بين الزحام الخانق .

– مش حنسيب المكان لغاية ما يجى العريس .. ونزفكم فى البلد .

– يا داهية سودة .

وجره منعم من يده ، وادخله المحل الرطب ، وانزل الستارة المصنوعة من خيط وخرز ملون .

– تفضل .

وأشار إلى الكرسى الكبير ، وكبس رأسه تحت الصنبور ، وبدأ يغسله بالشامبو ، بعدها جففه بالفوطة ، ثم أدخله فى مجفف الشعر .

نده منعم على صبيه ، اشار إليه ، فرفع الولد الستارة النبيتى السميكة ، ثم خرج بفستان الزفاف الأبيض الفضفاض ، فرده بين يديه ، وقال :

– إيه رأيك ؟

– أنا كنت موافق بنفس راضية بس الخلق اللى بره لبشوا جسمى .

– سلامة جسمك .. حاول تنساهم ، وركز فى الدور .

– بس دول مش متربيين خالص ، سامع كلامهم اللى نازل زى الدبش ؟

– انسى وادينى وشك ، حارسمك رسمة ما حصلتش . واستسلم حمادة ليد الكوافير . وكان قد هدأ تماما . والزحام كان يتضاعف كلما دخل المساء .

بعد أن اضئ المحل بشكل مبهر سمعوا الهتاف من الخارج لما انطلقت الكلاكسات من بعيد «بيب .. بيب أهلى» .

هدرت أصوات المحركات ، وارتفعت الحناجر «حيبله .. حيبله» ورفعت ستارة الخرز ليطالعهما وجه المعلم والشيخ .

تقدم الشيخ إلى الكرسى ، وتأمل الوجه عن قرب «اللهم صلى على كامل النور»«أنا طالب القرب لأجل حبيبى النبى» .

فدفعه حمادة بيده بدلال ..

أشرق وجه المعلم بابتسامة بهيجة ، وقال لمنعم :

– تسلم الأيادى يا أسطى .

ثم تقدم من حمادة ليقول له هازئا : نعيما .

وسأل حمادة : هو العريس معاكم ؟

– مستعجل على إيه يا قمر ؟ ومال عليه الشيخ ليقبله من خده ، واجابه المعلم :

– جينا نتأكد الأول .. حنبعت العربية تجيبه .

– والبرنامج إيه يا معلم ؟

– لا برنامج ولا يحزنون ، شوية تفاريح .

وتدخل الشيخ ليشرح لحمادة الخطة كاملة .

– ياخدك العريس من هنا ، وزفة فى طول البلد وعرضها والبركة فى الشباب اللى بره .. بعدين كتب كتاب صورى يعنى كدا وكدا فى الخيمة المنصوبة عند المعلف ، وشوية غنا ورقص لغاية ما نهد حيلكم أنتم الاتنين ، فماتعرفوش تعملوا حاجة .

– الاتفاق مافهش عمايل .

– أنا عايزه يتصرع ساعة ما تكشفله عن نفسك .

– ومين يحمينى يا معلم ؟

– هو إحنا حنسيبك والعياذ بالله ، كلنا حواليك .

– يمكن يكون معاه مطوه ، سكينة ، آلة حادة .

– مامعهوش غير آلته .. وماتلحقش تعمل حاجة .

فكركع الجميع لتعليق الشيخ .

وعاد الزحام إلى الهتاف من جديد ..

فخرج المعلم ليطمئنهم ..

– كل شئ بأوان .

وأشار إلى العربة المزخرفة بالورق الملون لتذهب إلى العريس ، وعاد إلى المحل مندهشا : إيه دا كله ؟ ترش الملح ما ينزل .

واجابه الشيخ : ولسه .

## - ٣ -

حين هدأ شارع الزراعية ، وكادت الرجل تنقطع عنه ، وصار الزبون عزيزا جدا ، اخرج المعلم عثمان حصيلة اليوم ، فرزها قرشا قرشا ، وجعل كل ورقة مع مثيلتها فى ربطة واحدة ، وصفها جميعا فى الخزينة الحديدية السميكة الأبواب .

نظر إلى رجاله ، فرآهم منتشرين بين بقايا اللحم المعلق ، لا عمل لهم ، فاصدر أوامره بإغلاق المحل ، وانتحى بزكى جانبا : عايزك تكون راجل .

– سرك فى بير .

– أنا عارف إنه أخوك ، ويعز عليك ، ويمكن يصعب عليك .

– هو راجلك برضه يا معلم .

– عايز اديله درس يطلع من نافوخه .

– اللى تأمر به .

– أوعى تضعف ، دبور وزن على خراب عشه .

– تأمر يا معلم .

– روح شطف نفسك ، وتعال كمل سهرتك معانا هناك ، ودفعه من كتفه خارج المحل ، وكان الشيخ سعدون قد قام يمط جسده البدين ، ويدفعه يمينا وشمالا رافعا يديه إلى العمامة ، وفتح شدقيه فى تثاؤبة طويلة .

- الظاهر الواحد نام من غير ما يحس .

- شخيرك جاب لآخر الشارع .

- يا أخى صحينى .

- وراك سهرة طويلة .. قلت سيبه ياخد حقه من النوم . والشيخ سعدون من عادته أن يحط بدنه فى أى مكان ، ما أن يتوقف عن الكلام ، ويميل برأسه على كفه حتى يأخذه النوم بسهولة ، ويطلق الغطيط الذى تدفعه رئتان عريضتان قويتان ، ينتفض فجأة ليمسح رواله براحة يده ، وتزوغ عيناه صائحا «حى .. قيوم» ثم يعود إلى استغراقه كأن شيئا لم يحدث .

ادخل المعلم ذراعه تحت إبط الشيخ ، وجره إلى الخارج ، هابطا الطوار إلى الشارع ، وكان يسير وراءه متثاقلا ، يجمع قفطانه بأصابعه ، يود لو عاد إلى فراشه لينام بعمق ويستجيب من حين لآخر لتثاؤبه ممطوطة تجبره على فتح فكيه حتى تؤلماه .

وزكى آب إلى داره متخاذلا مهزوما «راحت السكرة وجاءت الفكرة .. كيف ستواجه الخلق يا زكى؟» «تتواطأ معهم ضد أخيك ؟» «كلام المعلم واضح وصريح فيه قطع عيش .. وأنا لا أجيد غير هذه المهنة ، حتى عملى الآخر كبائع كبده مرتبط بالأول» .

كان وجهه فى الأرض لا يرى ما حوله ..

يحس بأصحاب المحلات المفتوحة يتابعونه بأبصارهم ، ويندهشون لعدم القائه السلام عليهم «اتمنى لو اختفيت عن الدنيا هذه الليلة بالذات» .

- اللى واخذ عقلك .

هكذا صاح دسوقى الفسخانى من وراء البنك الرخامى .

تلفت إليه ، وطوح بيده فى الهواء دون أن يرد عليه بلسانه «هل يستحق حودة مثل هذا العقاب ؟؟»

«المعلم لم يذكر لى فعلته ، ولا سبب غضبته عليه ، وحين سألته اجابنى باقتضاب ، هو عارف ، وسيعرف أكثر حين يحس بالرد بما سأفعله به ليلة عرسه» .

«آه يا أخى ، يا ابن أمى وأبى» .

أول مرة أشعر أنك أخرس ، لا تقدر على النطق.

لم أدرك أبدا أنك ناقص ..

أول مرة أشعر أنك أصم ، لا تسمع .

أعيش معك كل هذا العمر ، واتعامل معك كفرد كامل الحواس . ذكى ، ولماح .. بل أكثر ذكاء ولماحية من كثيرين يملكون القدرة على السمع والكلام»،

«البلد بأكملها تعلم شيئا أنت لا تدريه ..

والجميع فرح .. من أجل الفرجة ، كأنما هناك ثأر شخصى بينك وبين كل فرد على حدة ،

هل لأنك تعرف عنهم أكثر مما ينبغى ؟»

صار على رصيف المحطة ، وكان خاليا من المسافرين ، فرفع رأسه إلى أعلى سعيدا بالسير فى مكان هادئ ، فارغ من البشر ، فطالعه قرص الشمس الأحمر يهبط وراء المنازل العالية لتبتلعه ذؤابات النخيل ، وخضرة الحقول التى تمتد ما بين النهر وخط السكة الحديد .

مـر على مقهـى متولى ، فـوجد الكراسى خـالية ، تجمـعـها عـزيزة من الرصـيف إلى الداخل ، ومـتـولى بـالداخـل يجـمـع أدوات المقـهى فى قـفص الجريد .

– على فين العزم ؟

– البلد كلها هناك ، قلنا نعمل نصبة ، ونستفيد من الليلة .

وسـألته عزيزة :

– عايز حاجتك ؟ وانتبهت فيما بعد ، وقالت :

– صحيح دا أنت أخو العريس ، مفيش كبدة الليلة .

وهز زكى رأسه بأسف ، وسـأله متولى :

– تاخـد شـوية شـاى ؟ تصـافى الكنكة إنما إيه شـوية فى العـضل . وتركهما مشغولين برفع أشيائهم ، ومضى متفاديا السيارات المسرعة ليدخل الشارع الذى يهبط قليلا مما جعله يعود بظهره إلى الوراء ، ويحس بضغط جسمه على ساقيه النحيلتين .

رأى الجيران يقدمون على عجل ، ينظرون إليه بدهش متسائلين :

– أخو العريس ولسه مالبستش ؟

كانت النسـوة قد أخـذن زينتهن ، مـررن بمراود الكحل على رمـوشـهن ، وقرصن خدودهن ليدفعن الدم الأحمر إلى وجوهـهن . ونثرن العطر الرخيص على أجسادهن ، وارتدين أفضل ثيابهن ، كذلك كن قد حممن أطفالهن فبدوا فى هدوم العيد وهـم مجذوبين بالأيدى أو مرفوعين على الصدور فى غاية من السـعادة البريئـة ، تندفـع النسوة صـاعدات الشـارع إلى حيث الشـادر الذي ستضاء أنواره فى حفل قد يمتد حتى الصباح .

تجاهلهن كما تجاهل ما رددن من كلام يستنكر وجوده في الحى مما دفع بعض الإحباط إلى قلوبهن .

رأى صاحب معمل الجبن على كرسيه فوق الطوار واضعا الساق على الساق ، تعجب للمشهد ، ومصمص شفاه موجها كلامه لزكى :

– النسوان اتهبلت على آخر الزمن .

– الظاهر البلد شرقانة لأى فرح .

– مايكنش على حساب المصلحة .. مين حيحلب البهايم الليلة . حيسبوها لرجالتهم ، ولا نقفل ونروح ؟

همس زكى لنفسه «لا يهمك غير نفسك»

وتركه ليسير إلى جوار سور البيت الكبير .

كانت العصافير تتجمع مع دخول الليل بين أوراق التوت تشقشق بصخب عنيف ، وكل واحدة تبحث عن عشها بعد أن ملأت بطنها من خيرات الأرض. لا يدرى هل صخبهم هذا إعلان عن فرحة الراحة مع الليل الطويل ، أم هى مرثية للنهار الذى انقضى ؟

اصطدم ببدن عايدة الخارجة من الباب فى صف مع باقى أخواتها ، تحسست بيديها صدره ، ثم قالت بغضب :

– زكى !! بتعمل إيه هنا ؟

وقالت أمها الواقفة بآخر الصف :

– مش المفروض تكون هناك ؟ دا فرحكم .

– البركة فى المعلم والرجالة .. حشطف جسمى والحقكم .

ووجدتها عايدة فرصة للتأكد ، فسألته :

- صحيح المعلم دبح عجل ؟

وقالت نوال :

- والله الناس كلها بتقول .. حيوزع على كل واحد من البلد كيلو لحمة نية .

وخبطت أختها بحلة الألمونيوم الفارغة لتتحرك حتى تحصل على نصيبها قبل الزحام .

ولأن زكى لم يجب ، اعادت (أم على) السؤال :

- صحيح دبح ؟

- يمكن يا خذ اللحمة اللى فى الدكان .

- أهو كله لحمة والسلام .

وانتبه إلى صوت طالب المعهد الدينى الذى التحق بالصف :

- بيقولوا جايب طباخ كبير قوى من مصر .

كان ينحنى على ساقه المشلولة ، ويرفع رأسه نحو زكى مترقبا الإجابة .

حين مرق من بين الضلفتين سمح للصف بالتحرك .

وجرجر الطالب الأزهرى ساقه ، فارتفع التراب الناعم حوله ، حرك زكى يده أمام وجهه لينفض التراب ، وسعل بشدة ، حتى تكون البلغم فى فمه ، بصقه على الأرض ، وداسه بقدمه ، «رزق الهبل ع المجانين» .

دخل على أخيه الغرفة فوجده متواريا خلف الملاءة المنشورة على الحبل ، ينقل الماء بالكوز من حلة ترسل بخارا خفيفاً من سطحها ، وقف عاريا فى الطشت لا ينتبه إلى ما حوله ، يحاول إزالة رغوة الصابون عن وجهه ، فتنهد زكى بعمق ووجد صوته يخرج وهو يحاول السيطرة على مشاعره «يا حبيبى يا أخوى ..»

وأطل عليه برأسه من فوق الملاءة مبتسما ..

ومع إزالة الرغاوى فتح حودة عينيه المسرورتين ، وأشار عليه قائلا : عقبال حمام فرحك .

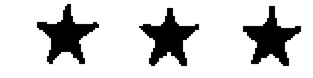
انهار جسده فتمدد على الحصير يطالع سقف الحجرة ، كاد أن يستسلم للغفوة التى جمعت أشتات طاقته المهدرة ، بيد أنه أفاق على صوت أخيه : آب .. آب ..

وأشار إليه ليقول له : هناك بقايا ماء يمكنك إن تشطف بها بدنك .

فرفع زكى يده إلى رأسه ، وأشار إليه : حلبس ع الناشف . وقام إلى جلبابه النظيف فرده أمامه ، خلع هدوم الشغل ، ورش وجهه بالماء الفاتر ، وجففه بسرعة ، ثم ادخل رأسه فى فتحة الجلباب ، ودون أن ينظر إلى أخيه أشار إليه :

حسبقك هناك .. ما تسبش الأوضة .. العربية (وجعل يديه تدوران على عجلة قيادة وهمية) حتاخدك من هنا ع الكوافير ، لأن العروسة هناك (جعل من الوسطى والسبابة مقص حلاق على رأسه) .

أراد حودة كمحاولة أخيرة الاستفسار عن هذه العروس التى اختارها المعلم ، فتهرب زكى منه ، وغادر الحجرة بسرعة .



## — ٤ —

فاجأك نور الخارج ..

هل هو الخروج الأخير من غرفتك المظلمة أبدا ؟

نور رمادى كامد ، نور لاشمس له ، هو بقايا الذبالة فى المصباح الكونى الذى اختفى هناك وراء الدور والحقول . عتمة خفيفة جعلتك لا ترى ثقب القفل ، ارتعشت يدك قليلا وأنت تحكم به غلق الرزة .

ما هذه الهزة فى يدك ؟ هل بسبب توديعك للمكان الذى عشت فيه عمرك مع أخ يحدو عليك ، ويرعاك ، بعد رحيل الوالدين ؟

ربما ..

ربما لأنك مقبل على دنيا غامضة ، لا سابقة لك معها ، ولا خبرة لك بما أنت قادم عليه .

فلماذا أنت قلق من يوم عشت عمرك تسعى إليه ؟

ألم يكن هذا حلم حياتك .. أنت تخرج من هذه الغرفة المقرفة ؟

لتقيم فى بيت خاص بك ، مع زوجة تنجب لك ذرية تكون سندك فى قابل الأيام .

لقد تحقق الحلم فعلا ، المعلم – أطال الله عمره – وفر لك سبل الراحة ، وقرأ بذكائه المعهود رغائب جسدك ، وحققها لك دون أن يطلب منك مليما ، فأنت محظوظ به .

التقطك من الشارع أنت وأخاك ، ألحقكما بالعمل لديه، وها هو يوفر لك في الوقت المناسب بيت عرسك .

فهل أنت خائف ؟

ومما تخاف ؟ أمن عسر هذه الليلة ومما يشاع عنها من عدم توفيق البعض في اللقاء الأول ، خاصة وأنك تقدم نفسك للناس كوتر مشدود ؟

لا.. هذا لا يخيف بالمرة .. الكثير من الرجال قد مروا بهذه الأزمة .

عبرت حياتهم ، وصارت فكاهة يتندرون بها في الجلسات الخاصة .

وأنت والحمد لله ليس لك من يسأل عن توفيقك ، وعدم توفيقك .

لن يحضرنا أحد ، ستكون - أنا وهي - في الغرفة وحدنا بعد أن ينفض السامر، وإذا لم يسعفك جسدك اليوم، فلتأجلها للغد ، أو بعد الغد .

أيكون لها أهل يسألون عنها ؟ من هي أمها ؟ من أبوها ؟

من أخوها ؟ هنا مربط الفرس . وسبب حقيقي من أسباب القلق .

من هي العروس ؟

لو كنت عرفتها من قبل . ربما كان الأمر أقل اضطرابا ..

«فلتكن من تكون ، امرأة كأي امرأة » .

وسبق أن اقنعت نفسك بأن المعلم رجل خبير بالنساء ، وعندما يختار لرجل من رجاله سينتقي امرأة لائقة من حيث الجمال، والأخلاق . فالأمر يهمه في المقام الأول، أن يرضي رجله ليظل خاضعا له العمر كله .

قد تكون واحدة من هؤلاء الخادمات اللائي يترددن على المحل ، أو فتاة فقيرة، ابنة رجل طيب ، عمل لديه من قبل ، أو ابنة رجل يعمل بالمعلف :

«فلتكن من تكون ، فهى فى النهاية امرأة كأى امرأة ..

وأنا رجل كأى رجل .. لما يغلق علينا باب حجرتنا سيكون لنا شان اخر .

هذه زيجة تنتمى للأزمنة القديمة ، ازمنة الآباء والأمهات لم يكن رجل يطالع عروس المستقبل من قبل، يفاجأ بها ليلة الزفاف ، وهو وحظه إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، أو كالبطيخة ، أنت وحظك ، حمراء أو بيضاء، هذا فى علم الله .

الآن كله على (المكسر ) فلماذا لم تجعلها على عادة ايامنا يا معلم ؟

كنت ذهبت اليها وأنا أكثر هدوءا ، واسلم نفسا ، أما الآن فحالى لا يسر عدوا ولا حبيبا : ادخل على مجهول !! .

« هل هى تعرفنى ؟» .

هل ذكروا لها اسم زوجها الذى ستنتظره وحيدة فى الحجرة ؟

هل تردد فى سمعها اسم الرجل الذى سيلقى بنفسه فى احضانها هذه الليلة؟ هذا الرجل الذى سيفض خاتم السر، ويطلع على أعماقها الخفية .

أكيد لها ام قالت لها ، أو أب تم الاتفاق معه ..

وهى بالتأكيد لها أذنان سليمتان ، ستسمع من أخت من جارة ، من قريبة . حين يذكرن لها اسمى ستعرفه .

أما أنا كيف السبيل إلى تعريفى بها ؟

بالإشارة ؟

لن تكفى لتحديد امرأة بين آلاف النساء فى هذه البلدة ، لابد وأن تكون قريبة من عالمى جدا ، فأتمكن من معرفتها بسهولة من أول اشارة ، او

علامة ، من وجهها من مشيتها ، من تكوينة الجسد . أى علامة ، التقطها بسرعة ، واعرف المشار اليها .

وكلما بعد الشخص عن دائرتك المحدودة تصعب الإشارة إليه إلا إذا كان معروفا جدا ، أو تكون له علامة مميزة، لا يشاركه فيها آخر .

المهم انك هيأت جسدك لليلتك ..

حلاقة جيدة ، اعطاها الغضل الوقت الكافي ، عمل بذمة ، واخلاص فخبرته تؤكد له أن حلاقة الزبون العابر غير العريس، كما عمل بالفتلة فى وجهك ، فنزع الزغب ، وصار الوجه ناعما يحبب اليد فى لمسه .

وحمام دافىء نشط مسام الجسم ، ليفه وصابونة معطرة دعكت بها جيدا تحت الإبطين اللذين نزعت عنهما الشعر العرقان، ومررتها جيدا ما بين الفخذين ، بعد أن شذبت شعر العانة بمقص من الحديد الصدىء، كان يفلت طرفيه على غير ارادة منك حتى كاد ان يصيبك فى موضع حساس من جسمك ، وكاد أن يقضى على فرحة الليلة كاملة .

الحمد لله انك انقذت باعجوبة ، ورفعت هذا المقص النكد الى اظافرك. فسويتها جيدا ، ودعكت الليفة بظاهر الكف حتى ضرب فيه الدم الأحمر .

ونثرت من زجاجة عطرك المكنونة بين طوايا الملابس على الصدر ، وتحت الإبطين ، وحول العنق، وعلى شعر الشارب الذى حففته فى المرآة على بقايا النور الهارب من النافذة .

وها أنت تدخل البدن النظيف - بعد أن جففته جيدا فى ملابس داخلية جديدة لها رائحة قطنية محببة للنفس .

فالنة وسروال ارتاح لملمسهما جسدك . وادخلت رأسك فى فتحة الجلباب الأبيض الجديد، ومددت ذراعيك الى الكمين، ثم سحبت ذلك الجلباب إلى أسفل. كل هذا بسبب خشيتك علي المكوة ، فلا تريد للثوب ان يتكسر قبل أن تقع عليه عين العروس وقبل أن يفرح به الناس حين يطالعونك كنجم لهذه الليلة .

وادخلت قدميك فى الحذاء الجديد ، لا داعى للجورب، فى الحذاء ما يكفي، كنت تضغط على القدمين بقوة ، فالجلد مشدود ، وجاف ضربتهما على الارض ضربتين، فهبط الكعبان الى اسفل ، وتجولت بالحذاء فى الغرفة ، حول الطشت، تدوس به على الطين بحذر وتحكه بالارض حتى تضيع نعومة النعلين، فلا يدفعانك الى السقوط .

الآن أنت خارج غرفتك .. لا تملك غير التردد فى المدخل الطويل بانتظار السيارة التى ستحملك الى عروسك والى بيتك الجديد .

تقف على الباب الخارجى ، تطل برأسك فى حذر .

يفاجئك سكون الشارع .

أين ذهب اهل الحى، لا نسوة هناك تحت السنطة، ولا طفل يلعب أمام داره، ولا بهيمة عائدة مع صاحبها من الغيط .

هدوء تام . ومخيف .

يشبه الهدوء الأزلى فى البيت الكبير، المختفى وراء كثافة اشجار التوت، حومت حولها العصافير عائدة إلى اعشاشها .

وتضاعفت العتمة فى الخلف ، وعلى الجوانب .

لم ير أحداً خارجاً من هذا البيت ، ولا داخلا اليه ، لم ير عمره- باباً مفتوحاً ، ولا نافذة مواربة .

عندما سأل زكى عن اصحاب البيت، اشار اليه بأنهم هجروه الى المدن البعيدة، بل منهم من سافر خارج البلاد .

ولا تقيم فيه غير عجوز متهالكة، لها خادمة فى مثل سنها تتردد على المحل لتبتا ع كيلو اللحم ، اسبوعيا .

أشار اليه حودة بأنه لا يعرفها ، قال له زكى : سأشير اليك لما تدخل المحـــل يوما، فالمعلم يحتفى بها جدا، ويقوم عن مكتبه ليقطع لها اللحم بنفسه .

فهز حودة رأسه ، واشار بأصبعه نحو عقله علامة الفهم .

مشهد البيت يقبض النفس، ويسحب الروح .

هىء له أن اشباحا سوف تطل عليه من وراء الاشجار .

جال ببصره فى الجهة العكسية ، فارتد اليه البصر محبطا، وموحشا .

هل سينتظر طويلا ؟ قالوا له : ابق حتى تأتيك السيارة .

فلماذا تأخروا حتى هذه اللحظة ، لقد أغلق الغرفة ، ووقف يتأمل الشارع حد الملل. لا أحد هناك يعاونه على تزجية الوقت .

كان يظن أنه سيلحق بالنسوة المجتمعات تحت السنطة ، يلهو معهن، ويعابثهن ويجيب على اسئلتهن المتطفلة ، ويمد يده الى هذه، ويداعب تلك لتسرى السخونة فى بدنه ، فيحفزه .. و .. و ...

وماذا ؟؟

يمتع عينيه بمشاهدة فكيهة ، وصدرها المكشوف .

إنها تدفع شياطين الارض الى دمه ، فأين هى الآن ؟

«هل سعت معهن لحضور العرس .

أم أن دلالها على يمنعها ؟

ليتها تذهب الى هناك ، لتكون اخر من تقع عليه عيناه ، فيقبل على عروسه بحمية ، لا تخمد .

وعاد بظهره الي المدخل ...

هل يعود لفتح باب الغرفة .. ويقبع هناك بكل احترام حتى يأتوا اليه ؟

لا أحد هنا حتى طالب الازهر سعى معهم ، قفله الكبير يتدلى على الباب: و(أم على) - بالتأكيد - سحبت عمياواتها الى هناك ، فهذه فرصة لا تفوتها ابدا .

وشعر باليد التى تلمس رأسه : فانتصب الشعر رعبا ، وتدافعت ضربات قلبه بألم .

ما هذا ؟

يا ربى .. إنها فكيهة تطل من نافذة الغرفة من جهة المدخل .

كاد يصرخ من الدهشة والخوف معا .

وصرخ فعلا ، وهو يشير اليها، نحو قلبه ، ويخرج من بين شفتيه صوت ضربات القلب العنيفة ، اشار اليها: كدت اموت من الخضة .

فاشارت اليه بوجه مشرق بالبدرة البيضاء والروج الاحمر الفاقع : سلامة قلبك.

توقف ليتأمل بياض الوجه الذى تساقط حوله الشعر الاسود المحلول، والبسمة اللعوب المغوية التى تشيع البهجة الى روحه ، غمزت له بطرف عينها المكحولة، واشارت له بالسبابة تتقلب فى قبضة اليد الاخرى: تشرب شاى ؟

فصرخ من الفرحة : آب .. آب .

رفع ذيل جلبابه واقتحم الباب المفتوح على المدخل ليهبط درجتين الى الردهة المظلمة التى تخرج عن يمينها درجات السلم الى مقعد (ام على) ويقبع اسفلها المرحاض ببابه المرقع بخشب قديم .

فتحت له باب حجرتها ..

وقف امامها مبهوتا عاجزا عن رفع ساقيه الى العتبة ، فقد بهره ذاك الثوب الاحمر بالفروة الناعمة التى تهبط من خلف الرأس وتمتد فوق النهدين تاركة مساحة من النور تحت النحر ، وفوق الهضبة اللاهثة وبين الفلقتين المعذبتين .

مدت يدها اليه. واشارت لتقول له : عايز عزومة ؟

ودخل ..

ظل صامتا ، يطالع اشياء الغرفة . الدولاب بمرآته الوحيدة، والسرير النظيف بأغطيته الخفيفة المطوية ، والكنبة بمسنديها وفرشتها البيضاء الناصعة، وحصير البلاستيك المفروش ما بين الكنبة والسرير .

جلس ذات يوم على نفس هذا الحصير ،، حين كان جديدا تماما، كان للغرفة رائحة الاشياء التى لم يهلكها القدم .

دعاه فكرى ليرص له حجرين ، اشعلت لهما فكيهة الوابور وورصت فوقه صفا من القوالح ، دفنتها بين رماد المنقد ، وراحت تتابع مع براد الشاى ، حوده يرص ، وفكرى يقطع حتى شعشعت الحشيشة فى رأسه ، فكان يلقى النظرة الى فكيهة التى صعدت الى الكنبة بكامل بهائها ،، مشغولة بتطريز

منـديل الرأس الابيض بوروده الزاهيـة ، ذات الالوان الصـارخـة ، يلقى النظرة ، ويعود الى نفسه حسيرا وحزينا .

يحسد جاره على امتلاكه لكل هذه الفتنة .

يحاول أن يجعلها تلتفت اليه، ولكنها المعذبة ، لا تلقى اليه بالا تظل مشغولة بعمل يديها ، مسدولة الجفنين ، ترقب الإبرة بين اصابع طويلة بيضاء .

يتنهد ، وينفث النار من صدره ، مع دخان المعسل ، ويعود لرفع الجذوات الى الحجـر ، ويمد الغابة الى فكرى فاتحا فمه بأصوات تعنى : مساء الورد .

وأكثر من مرة عندما يضطر لرص المعسل لزبائن مقهى متولي يسحب التعميرة بلسانه خلسة ليجمعها فى قطعة معقولة ويغرى بها جاره عند اللقاء به مساء . يشير اليه بعد عودته من عمله : معى تعميرة تخبل .

فيدعوه الى الجلسة التى أدمنها .

حاول – فيما بعد – ان يكرر طقسه المعتاد غير أن فكرى اشار اليه بأنه لم يعد يدخن الحشيش ، يكتفى بالسيجارة من حين لاخر ، وسعل بشدة ، وتفل البلغم من فمه واشار اليه ليفهمه ان الطبيب منعه من ذلك .

فانقطع حوده عن زيارته .

وحرم من هذه الجلسات المتعة .

وها هو يعود اليها ، دون فكرى ، فينشق انفه روائح مختلطة من عطر المرأة ، ومن عطن الغرفة ، وعرق الملابس ، وفرش السرير، والخشب الذى تراكم عليه غبار الشارع ورطوبة المكان .

سألها عن فكرى ، فاشارت اليه بأنه هناك مع المدعوين بانتظار العريس الذى هو انت .

فضحك بحيرة وكأنما نسى الموضوع برمته ، نسى أنه عريس الليلة ، ونسى كل الاستعدادات التى تهيأ لها ، وشعر بأنه مقيم بهذه الغرفة منذ زمن بعيد .

وسألها بالاشارة : ولماذا لم تذهبى معه ؟

فابتسمت ، واشارت اليه : تذهب فى انتظار من ؟ والعريس هنا معها، وحدها.

وجلست الى جواره ،

وصار الوجه فى الوجه ،

اشارت اليه بأنها ستكشف له سرا على الا ينفعل يظل على هدوئه حتى لا يسمعهما احد من الجيران فادهشه هذا ..

اى سر !! هل ستقول له إنها تحبه ؟

لماذا لم يحدث هذا من قبل ، تنتظر كل هذا الوقت لتعلن له عن سرها ، فى يوم عرسه ؟

وضع كفه على فمه ، علامة الكتمان .

وقصت عليه لعبة المعلم كاملة ، وهى تحرك اطراف اصابعها المشوقة على ياقة الجلباب الابيض النظيف .

لمعت عيناه فى الظلمة ، وكادت الدموع تسيل على خديه، لم يشعر بالعقدة التى ربطت لسانه قدر شعوره فى هذه اللحظة، يريد أن ينتفض ، أن يمزق شيئا ما امامه ان يمد اصابعه الجافة الى خناق شخص مجهول ، لم

يحدد ملامحه ، لانه يمتلك اكثر من وجه ، ويعصر بهذه الاصابع رقبته حتى يتدلى الرأس على الصدر.

يريد ان يصرخ . . أن يصرخ .

أو ينفجر بدنه فى انحاء الغرفة .

غير أنها سيطرت عليه تماما .

جعلت عينيها فى عينيه ، هى تحدق لتتمكن منه ، وهو يحدق فى الفراغ ، عينان كبيرتان ، هما فضاء هذه الغرفة ، ورفعت كفها لتكتم بها فمه ، ثم حركت الكف الى أعلى لتداعب شعيرات الشارب ، ورفعت الاخرى الى الاذنين .. واستسلم لها تماما .

أراد أن يسألها كيف عرفت بهذا الامر ؟

ولم يسيطر على الحشرجة المخنوقة فى حلقه ، فاعفته من السؤال الذى ادركته ، واشارت اليه بأن المعلم اســتدعى فكرى ليدهن غرفة عرسك بالجير .

وألم بالموضوع كله .

واشار اليها بيد هامدة : هل احد أخر يعرف ؟

وردت عليه باشارة استعانت فيها بذراعيها لتديرها فى الفراغ بأن البلد كلها تعرف.

واشــار اليهــا جامعا ســبابتى اليــدين حتى تلامســا : وزكى يعــلم ؟

قامت بطولها الفارع لتقف امامه : اول العارفين .

فنطق الاه كما ينطقها السليم .

ولف ذراعيه حول خصرها ، وانام وجهه فوق قبة بطنها المشدود .

مررت اصابعها فى شعره ، وراحت تهدهده وتضمه اليها ضما خفيفا رفيقا، وهو يدفس وجهه فى بطنها .

ويقتحمه كالهارب . يريد الاختفاء ، يريد الرحيل في دمها .

هاجرا العالم من حوله .

وتحرك الدم فى شرايينه ، وخفت حدة الفجيعة رويدا رويدا .

وسره انه استطاع القيام على ساقين راسختين ليقف امامها، الوجه فى الوجه، العين فى العين .

ثم أخيرا .. الفم فى الفم ..

وسره انه استعاد قوته ، فاستطاع ان يدفعها الى الخلف، ليصعد بها الى السرير ، فتطاوعه بليونه وتطلب .

ولم يصدق نفسه حين وجد نفسه يقف عاريا تماما، وقد نزع كل ملابسه الجديدة عن بدنه الذى ألقى به إليها ، فاستقبلته بترحاب، آخذة اياه، بحميميه ، وتعاطف ، نحو بحرها المتلاطم الحنون .

## — ٥ —

هذه هى عودته الثانية .

فى المرة الاولى، قال له المعلم حانقا : قب واغطس وهات لى اخوك من تحت طقاطيق الارض .

كـــانت العربات قد عادت اليه فارغة، قالوا له لم نجـــد العريس فى غرفتـــه ، وهى مغلقة بالضبة والمفتاح والدار خالية تمـــاما، لا أحد هناك، لا فـــوق ولا تحت ، حاولنا أن نسـأل أحدا من الجيران لم نجد أحدا فى الحى .

ودفع المعلم زكى من ظهره : رح لا ترجع إلا وهو معاك .

ولم يصدق الرجل أن احدا من البلد قد باح له بالسر .

الكل فى بهجة لمتابعة اللعبة حتى النهاية .

لا يمكن .. لا يمكن .

الكل حريص على اللهوبه ، فأين سيجدون متعة كهذه ؟

إنها تحدث فى العمر مرة .

قطع زكى الطريق مذهولا يسأل نفسه ، أين ذهب حوده ؟ تركته وهو فى كامل فرحته ، كان يستحم ، ويستعد لليلته غير مصدق ، ولم اشر اليه لا من قريب ولا من بعيد ..

هل التقى بأحد فى الطريق فكشف له السر ؟

أى طريق ؟ إنه لم يأت على قدميه، قلت له : لا تترك الغرفة حتى تأتى السيارة لتأخذك إلى عروسك.

هو إذن لم يغادر البيت ..

أيكون أحد قد أشفق عليه، فتسلل اليه فى غرفته ليعلن إليه ما دبره المعلم، وما أخفته البلد جميعا؟

عبر المدخل المظلم، لا يرى شيئا أمامه .

اشعل عود ثقاب، وانحرف نحو الغرفة. القفل معلق فى الباب، نده عليه وسط الظلام : حودة ..يا حودة .

لم يستجب لندائه أحد .

اعاد النداء ..

فأطل عليه رأس «أم على» من النافذة العلوية : افتح الباب وشوفه جوه .

واجابها زكى مستنكرا : حيقفل على نفسه من بره .. إزاى يعنى ؟

وخرج إليه الطالب الأزهرى بالفانلة والسروال، وقال له : رجعت من هناك بصيت عليه مالقيتوش، شوفه على قهوة متولى .

- متولى قافل.

وعاد ليخبر المعلم بما رأى، وبما سمع.

كاد الجنون يخرجه عن طوره، فهدأه الشيخ سعدون قائلا : ابعت رجالتك يدوروا عليه فى كل حتة.

فصرخ المعلم فى الرجال المتحلقين حوله، فانتشروا فى الأنحاء يبحثون عنه .

وعادوا فى أخر الليل دون خبر .

فاعطى المعلم إشارته بانفضاض المولد، ومسح حمادة المساحيق عن وجهه، وخلع ثوب العرس، وعاد إلى بيته رافعا حقيبته تحت إبطه، وغادر الناس المكان.

بقى المعلم مع الشيخ سعدون، أمام نصبة متولى، يطلقون دخان الجوزة فى غل، وبعد أن عمر الحشيش رأسه وأخذه السطل إلى عوالمه السحرية الخلابة، ابتسم المعلم، ثم قهقه بصوت عالٍ، ثم أستلقى إلى الخلف يضرب كفاً بكف، ويجاوبه فى الضحك العالى الشيخ سعدون، وتناثرت عدوى الضحك على الجميع.

قال المعلم بدهشة وهو يمسح وجهه بمنديله الكبير : الواد فص ملح وداب.

ورد عليه الشيخ : ما أهبل إلا ابن آدم .

قال المعلم، وهو ينكت الدخان من صدره : قلنا أخرس ما بيتكلمش وأطرش ما بيسمعش وحنكفى على الخبر ماجور .

وعلق الشيخ على كلامه : ليكون الواد خاف من الليلة وقال يا فكيك .

عاد الغيظ المكظوم ينهش صدر المعلم ليقول : شاطر يعمل دكر على أسياده، حيروح فين، مصيره يرجع زى الكلب .

وأجابه متولى وهو يمد الغابة إلى فمه : البلد غنمة قايمة وغنمة نايمة .

وتهلل وجه المعلم وهو يشير إلى عزيزة التى تمددت بطولها إلى جوار زوجها من تعب اليوم : طب ياخوى لم غنمتك وقم روح .

★★★

دخل زكى الحجرة ماداً يديه أمامه يبحث عن لمبة الجاز، أشعل عود الثقاب فأتضحت أشياؤه القليلة فوق ترابيزة تراكم عليها التراب والزيت حتى أسودت جميعها .

أشعل فتيل اللمبة فازدادت الأشياء وضوحا، الطشت لم يزل فى مكانه بماء الحموم، حوله دائرة من الطين، والنعل القديم لحودة على الأرض إلى جوار الفرشة وملابسه القذرة معلقة على مسمار، والفوطة لم تزل رطبة بعد أن جفف بها جسده، والتقط أنفه بقايا عطـــر ممزوجة بأنفاســهما التى لا تغادر الغرفة .

رد الباب وراءه، لم يحاول غلقه من الداخل، ربما عاد وأراد الدخول دون أن يحدث صوتا يوقظنى، سأشعر به، مهما تخفى، واتشمم أنفاسه، ويتردد فى سمعى لهاثه. «أين أنت الآن يا حودة؟»

«عد.. وليكن ما يكون»

مدد جسده المرهق على الفرشة، وأسند رأسه على كفه، وأخفض فتيل اللمبة، فتأكدت الظلال، وصارت طويلة وشبحية ، حدق طويلا جهة النافذة المفتوحة على الشارع.

ولم يشعر إلا بصوت أمين الأعمى يتردد فى صمت الحى «سبحان ما تسمى قبل أن يتسمى.. سبحان من علم أدم الأسماء»

نهض من فرشته ، يمط جسده ، وينطر يديه إلى الأمام وإلى الخلف ، تثاءب وهو ينادى عليه : حودة .. اصحى يا حودة . لم يجد من يجيب النداء ، فتوالت على ذهنه أحداث البارحة فشعر بغصة فى حلقه ، نفخ الشعلة الصغيرة الواهنة ، وخرج إلى الشارع وحيداً ، يسير صامتاً فى الشارع الصامت ، نظر خلفه عله يراه قادماً نحوه ، وتلفت يميناً وشمالاً ، لم تقع عيناه على أحد .

ألقى تحية الصباح على (أبو سنة) الذى يرفع سحاحيره خارج البيت ، وتابع الأم وهى تلاحق ابنتها بالمكنسة ، فتبسم ، وحانت منه نظرة عابرة إلى يساره ليلكز حودة ، ولم يشعر إلا بالفراغ . ورأى النسوة الرافعات لمتارد اللبن ، يسعين إلى المعمل ويتركن الأثر على تراب الأرض بعد أن يدسن الطبقة الخفيفة من الندى .

كل شىء يسير كالمعتاد..

هؤلاء الناس كأنهم لم يشاركوا فى لعبة الأمس .

الشارع الكبير يضج بالسيارات، ومتولى يقف أمام النار يغرس فيها السيخ الحديد، ويخرجه متوهجا ليطهر به قلب الجوزة، وامرأته على النصبة تراعى الكنكات على الرمالة وتغمس الحجارة بالمعسل .

– ما ظهرش برضه ؟

– أبدا .

– راح فين يا خوى .

– ربنا أعلم .

وقف على أول الكوبرى الذى تقطعه بوابة المحطة، يرقب قدوم العربة الكارو..

وأخيراً رآها مقبلة، يدفعها الرجال من الخلف، ليتمكن الحمار من جرها فى المطلع الصعب، حين أستوت على الطريق توزعوا حول أرضيتها الخشبية، وقد تدلت سيقانهم على الجانبين، تاركين مساحة للطشوت، وعدة الجزارة.

وبآلية اعتاد عليها قفز إلى جانب العربة، فى نفس المكان، وأطلق الحوذى العنان إلى الحمار، فأندفع سعيدا بالهبوط إلى شارع السوق متخذا طريقه إلى السلخانة

# أحـــدث إصـــدارات روايات الهـــلال

| العدد | اسم الرواية | المؤلف | التاريخ | الثمن بالجنيه |
|---|---|---|---|---|
| ٦٣٥ | ليالى غربال | مصطفى نصر | نوفمبر ٢٠٠١ | ٧,٠٠ |
| ٦٣٦ | جنرال الجيش الميت | إسماعيل قدرى | ديسمبر ٢٠٠١ | ٧,٠٠ |
| ٦٣٧ | أيام وردية | علاء الديب | يناير ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٣٨ | صمت الرمل | محمد عبدالسلام العمرى | فبراير ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٣٩ | قبض الريح | على الشوباشى | مارس ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٠ | نخلة على الحافة | جميل عطية ابراهيم | أبريل ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤١ | المعبر | زياد عبدالفتاح | مايو ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٢ | أسرار حميمة | نوريا أمات | يونيه ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٣ | أوان القطاف | محمود الوردانى | يوليو ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٤ | حالة مستعصية | سعيد سالم | أغسطس ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٥ | صهاريج اللؤلؤ | خيرى شلبى | سبتمبر ٢٠٠٢ | ٧,٠٠ |
| ٦٤٦ | حلم ليلة افريقية | سبريان إكويتسى | أكتوبر ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |



## يوسف أبو رية

- مواليد يناير ١٩٥٥ .
- درس الصحافة بكلية الاعلام - جامعة القاهرة ١٩٧٧.
- هجر العمل الصحفي ليتفرغ للكتابة الأدبية .

من رواياته .

- عطش الصبار - تل الهوى - الجزيرة البيضاء.

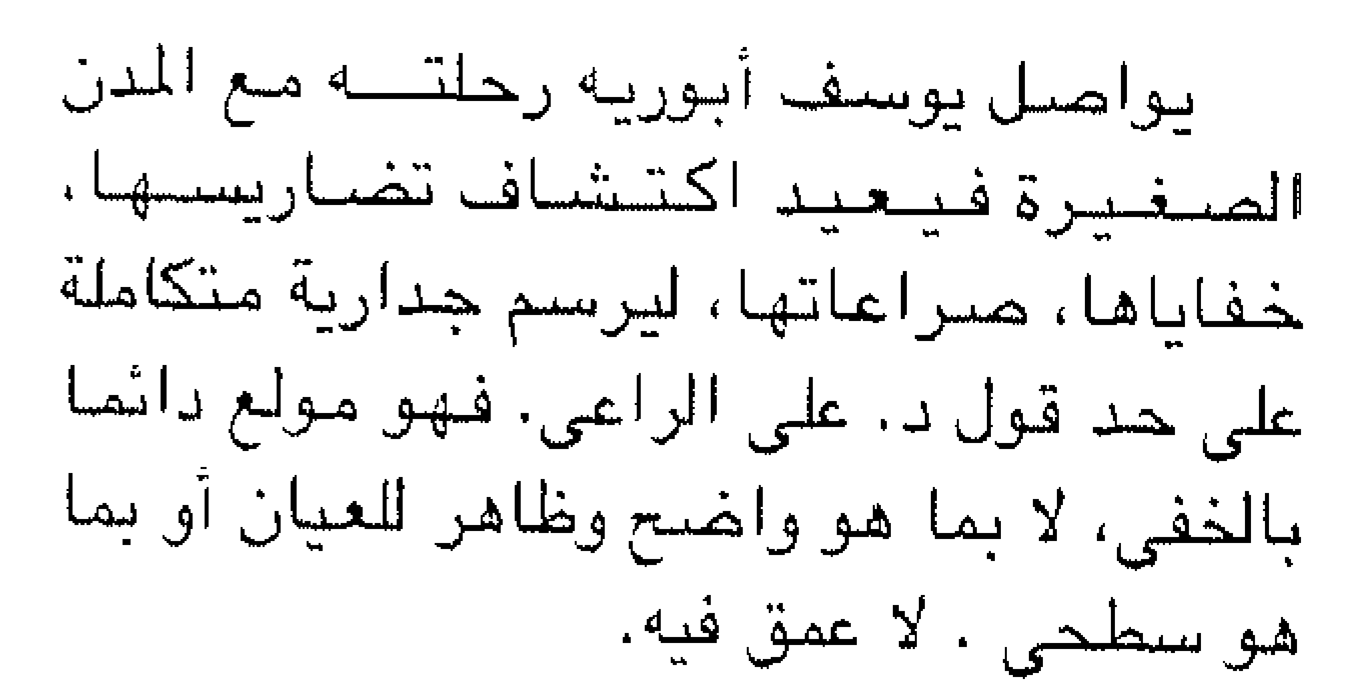
ومن مجموعاته القصصية :

- الضحى العالى - عكس الريح - وش الفجر - ترنيمة للدار - طلل النار - شتاء العُرى.

وكتب للأطفال :

- خبز الصغار - أسد السيرك - طفولة الكلمات - الأيام الأخيرة للجمل (رواية) - ماركو الملايين (رواية) - أحلام عنترة - (رواية)

ترجمت أعماله القصصية الى الانجليزية (١٩٧٩ - ٢٠٠١) والي الألمانية (١٩٨٩ - ١٩٩١).



# هذه الرواية

يواصل يوسف أبوريه رحلته مع المدن الصغيرة فيعيد اكتشاف تضاريسها، خفاياها، صراعاتها، ليرسم جدارية متكاملة على حد قول د. على الراعى. فهو مولع دائما بالخفى، لا بما هو واضح وظاهر للعيان أو بما هو سطحى . لا عمق فيه.

من خلال هذه الشخصية الفريدة (حودة الأخرس) وعبر المؤامرة التى دبرت له. من المعلم الجزار، والشيخ سعدون الذى يعيش تناقضات الحياة، دون تبرم، أو الالتفات إلى الأفعال التى لا تليق بوقار الصوفى المزعوم، بل عبر مؤامرة اكتملت خيوطها من أهل المدينة جميعا يقع الاخرس فريسة لهذا التدبير المحكم، لا لشىء إلا لأنه ملم بأسرار حياتهم، وتجاوز فى معرفته الخد المسموح به، بل لأنه منح لنفسه مزيدا من التجاوز حين كشف ستر البيوت ، وهتك السر المكنون.

مؤامرة شريرة، يشارك فيها الجميع، ولا تنقذه من السقوط فى هاويتها غير امرأة عاشقة، ولكنها لم تبد عشقها الا فى اللحظة المواتية، بعد أن فقد حودة الأمل فى التواصل معها ومع الآخرين، ولو على المستوى الإنسانى البسيط .

عمل غنى بالأحداث ، كاشف، وفاضح للعبة الاجتماعية على كافة الأصعدة، ولا تعدو هذه المدينة - النموذج اكثر من مسرح للأحداث ، يعطى للعالم الفنى المطروح خصوصيته.


أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة
الكعبة المشرفة
أدبيات
أحمد بهاء الدين
رجولة وعروبة.. قيادة وريادة
سيكولوجية
أدبيات
نساء العرب
مواقف وطرائف ومعارك
محمد إسماعيل الجاويش
أدبيات
فريد الأطرش
أدبيات
خاطرات على الورق
أدبيات
هيكل اليهودي التائه
جلال عبد الفتاح
رفاعة الطهطاوى
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢